(٦٣) سورة المنافقون مدنية
وآياتها إحدى عشرة

● سورة « المنافقون » مدنية ، شأنها شأن سائر السور المدنية ، التي تعالج « التشريعات والاحكام » وتتحدث عن الاسلام من زاويته العملية وهي القضايا التشريعية .

● والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث بإسهاب عن النفاق والمنافقين ، حتى سميت السورة بهذا الاسم الفاضح ، الكاشف لاستار النفاق « سورة المنافقون » .

● **تناولت** السورة الكريمة في البدء أخلاق المنافقين . وصفاتهم الذميمة التي من أظهرها الكذب ، ومخالفة الظاهر للباطن ، فإنهم يقولون بألسنتهم ما لا تعتقده قلوبهم ، ثم تآمرهم على الرسول ﷺ وعلى المسلمين ، وقد فضحتهم السورة وكشفت عن مخازيهم وإجرامهم ؛ فهم بتظاهرهم بالإسلام يصدُّون الناس من دين الله وينالون من دعوة الإسلام ما لا يناله المعلن لكفره ، ولذلك كان خطرهم أعظم وضررهم أكبر وأجسم « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً » .

● **كما تحدثت** السورة الكريمة عن مقالاتهم الشنيعة في حق الرسول ﷺ **واعتقادهم بأن دعوته ستضمحل وتتلاشى ، وأنهم بعد عودته** من « غزوة بني المصطلق » سيطردون الرسول والمؤمنين من المدينة

المنورة ، إلى غير ما هنالك من أقوال شنيعة .

● **وختمت** السورة الكريمة بتحذير المؤمنين من أن ينشغلوا بزينة الدنيا ولهوها ومتاعها عن طاعة الله وعبادته شأن المنافقين ، وبينت أن ذلك طريق الخسران ، وأمرت بالانفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله قبل أن يفوت الأوان بانتهاء الأجل فيتحسر الإنسان ويندم حيث لا تنفع الحسرة والندم

سورة المنافقين

[٩٤١] أخرج البخاري وغيره(١) عن زيد بن أرقم قال سمعت عبدالله بن أُبي يقول لأصحابه لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا فلئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فذكرت ذلك لعمي فذكر ذلك للنبي [ﷺ] فدعاني النبي [ﷺ] فحدثته فأرسل رسول الله [ﷺ] إلى عبدالله بن أُبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا فكذبني وصدقه فأصابني شيء لم يصبني قط مثله فجلست في البيت فقال عمي ما أردت إلا أن كذبك رسول الله [ﷺ] ومقتك فأنزل الله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾(٢) فبعث إلى رسول الله [ﷺ] فقرأها ثم قال: **«إن الله قد صدقك»** له طرق كثيرة عن زيد وفي بعضها أن ذلك في غزوة تبوك وأن نزول السورة ليلاً.

[٩٤٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة قال قيل لعبد الله بن أُبي لو أتيت النبي [ﷺ] فاستغفر لك فجعل يلوي رأسه فنزلت فيه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾(٣) الآية. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة مثله.

[٩٤٣] ك.. وأخرج(٤) عن عروة قال: لما نزلت: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾(٥) قال النبي [ﷺ]: **«لأزيدن على السبعين»** فأنزل الله ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾(٦) الآية. ك.. وأخرج عن مجاهد وقتادة مثله.

[٩٤٤] ك.. وأخرج من طريق العوفي عن ابن عباس قال: لما نزلت آية براءة قال النبي [ﷺ] وأنا أسمع: **«أني قد رخص لي فيهم فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم»** فنزلت.

* * *

---

[٩٤١] (١) ورواه الترمذي في سننه (٣٣١٢و ٣٣١٤) والواحدي في أسباب النزول ص (٢٤٣).
(٢) سورة المنافقون: الآية (١).
[٩٤٢] (٣) سورة المنافقون: الآية (٥).
[٩٤٣] (٤) رواه ابن جرير (١٠/١٣٨).
(٥) سورة التوبة: الآية (٨٠).
(٦) سورة المنافقون: الآية (٦).

سورة المنافقون

إحدى عشرة آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١ ﴾

وجه تعلق هذه السورة بما قبلها، هو أن تلك السورة مشتملة على ذكر بعثة الرسول ﷺ وذكر من كان يكذبه قلبًا ولسانًا بضرب المثل كما قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ [الجمعة: ٥] وهذه السورة على ذكر من كان يكذبه قلبًا دون اللسان ويصدقه لسانًا دون القلب، وأما الأول بالآخر، فذلك أن في آخر تلك السورة تنبيهًا لأهل الإيمان على تعظيم الرسول ﷺ ورعاية حقه بعد النداء لصلاة الجمعة وتقديم متابعته في الأداء على غيره وأن ترك التعظيم والمتابعة من شيم المنافقين، والمنافقون هم الكاذبون، كما قال في أول هذه السورة: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ يعني عبد الله بن أبي وأصحابه ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ وتم الخبر عنهم ثم ابتدأ فقال: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ أي أنه أرسلك فهو يعلم أنك لرسوله ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾ أنهم أضمروا غير ما أظهروا، وإنه يدل على أن حقيقة الإيمان بالقلب، وحقيقة كل كلام كذلك، فإن من أخبر عن شيء واعتقد بخلافه فهو كاذب، لما أن الكذب باعتبار المخالفة بين الوجود اللفظي والوجود الذهني، كما أن الجهل باعتبار المخالفة بين الوجود الذهني، والوجود الخارجي، ألا ترى أنهم كانوا يقولون بألسنتهم: نشهد إنك لرسول الله، وسماهم الله كاذبين لما أن قولهم يخالف اعتقادهم، وقال قوم: لم يكذبهم الله تعالى في قولهم: ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ إنما كذبهم بغير هذا من الأكاذيب الصادرة عنهم في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤]الآية. و﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦]وجواب إذا ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ﴾ أي أنهم إذا أتوك شهدوا لك بالرسالة، فهم كاذبون في تلك الشهادة، لما مر أن قولهم يخالف اعتقادهم.

وفي الآية مباحث:

البحث الأول: أنهم قالوا: نشهد إنك لرسول الله، فلو قالوا: نعلم إنك لرسول الله، أفاد مثل ما أفاد هذا، أم لا؟ نقول: ما أفاد، لأن قولهم: نشهد إنك لرسول الله، صريح في الشهادة على إثبات الرسالة، وقولهم: نعلم ليس بصريح في إثبات العلم، لما أن علمهم في الغيب عند غيرهم.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٣﴾

قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ أي سترًا ليستتروا به عما خافوا على أنفسهم من القتل. قال في (الكشاف): ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ يجوز أن يراد أن قولهم: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾[المنافقون: ١] يمين من أيمانهم الكاذبة، لأن الشهادة تجري مجرى الحلف في التأكيد، يقول الرجل: أشهد وأشهد بالله، وأعزم وأعزم بالله في موضع أقسم وأولى: وبه استشهد أبو حنيفة على أن أشهد يمين، ويجوز أن يكون وصفًا للمنافقين في استخفافهم بالإيمان، فإن قيل: لم قالوا نشهد، ولم يقولوا: نشهد بالله كما قلتم؟ أجاب بعضهم عن هذا بأنه في معنى الحلف من المؤمن وهو في المتعارف إنما يكون بالله، فلذلك أخبر بقوله: نشهد عن قوله بالله.

وقوله تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي أعرضوا بأنفسهم عن طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله، وقيل: صدوا، أي صرفوا ومنعوا الضعفة عن اتباع رسول الله ﷺ ﴿سَآءَ﴾ أي بئس ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ حيث آثروا الكفر على الإيمان وأظهروا خلاف ما أضمروا مشاكلة للمسلمين.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ ذلك إشارة إلى قوله: ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ قال مقاتل: ذلك الكذب بأنهم آمنوا في الظاهر، ثم كفروا في السر، وفيه تأكيد لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[التوبة: ١٠٧، الحشر: ١١] وقوله: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ لا يتدبرون، ولا يستدلون بالدلائل الظاهرة. قال ابن عباس: ختم على قلوبهم، وقال مقاتل: طبع على قلوبهم بالكفر فهم لا يفقهون القرآن، وصدق محمد ﷺ، وقيل: إنهم كانوا يظنون أنهم على الحق، فأخبر تعالى أنهم لا يفقهون أنه طبع على قلوبهم **ثم في الآية مباحث:**

البحث الأول: أنه تعالى ذكر أفعال الكفرة من قبل، ولم يقل: إنهم ساء ما كانوا يعملون، فلم قال هنا؟ نقول: إن أفعالهم مقرونة بالأيمان الكاذبة التي جعلوها جنة، أي سترة لأموالهم ودمائهم عن أن يستبيحها المسلمون كما مر.

الثاني: المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم، فما معنى قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾؟ نقول: قال في (الكشاف) ثلاثة أوجه: أحدها: ﴿ءَامَنُواْ﴾ نطقوا بكلمة الشهادة، وفعلوا كما يفعل من يدخل في الإسلام ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ ثم ظهر كفرهم بعد ذلك، وثانيها: ﴿ءَامَنُواْ﴾ نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾[البقرة: ١٤، ٧٧]، وثالثها: أن يراد أهل الذمة منهم.

الثالث: الطبع على القلوب لا يكون إلا من الله تعالى، ولما طبع الله على قلوبهم لا يمكنهم أن يتدبروا ويستدلوا بالدلائل، ولو كان كذلك لكان هذا حجة لهم على الله تعالى، فيقولون: إعراضنا عن الحق لغفلتنا، وغفلتنا بسبب أنه تعالى طبع على قلوبنا، فنقول: هذا الطبع من الله

تعالى لسوء أفعالهم، وقصدهم الإعراض عن الحق، فكأنه تعالى تركهم في أنفسهم الجاهلة وأهوائهم الباطلة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝٤ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦ ﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ يعني عبد الله بن أبي، ومغيث بن قيس، وجد بن قيس، كانت لهم أجسام ومنظر، تعجبك أجسامهم لحسنها وجمالها، وكان عبد الله بن أبي جسيمًا صبيحًا فصيحًا، وإذا قال سمع النبي ﷺ قوله، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ أي ويقولوا: إنك لرسول الله تسمع لقولهم، وقرئ (يُسْمَعْ) على البناء للمفعول، ثم شبههم بالخشب المسندة، وفي الخُشُب التخفيف كبَدَنة وبُدْن وأَسَد وأُسْد، والتثقيل كذلك كثَمَرة وثُمُر، وخَشَبة وخُشُب، ومَدَرة ومُدُر. وهي قراءة ابن عباس، والتثقيل لغة أهل الحجاز، والخشب لا تعقل ولا تفهم، فكذلك أهل النفاق كأنهم في ترك التفهم، والاستبصار بمنزلة الخشب. وأما المسندة يقال: سند إلى شيء، أي مال إليه، وأسنده إلى الشيء، أي أماله فهو مسند، والتشديد للمبالغة، وإنما وصف الخشب بها، لأنها تشبه الأشجار القائمة التي تنمو وتثمر بوجه ما، ثم نسبهم إلى الجبن وعابهم به، فقال: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾ وقال مقاتل: إذا نادى مناد في العسكر، وانفلتت دابة، أو نشدت ضالة مثلاً ظنوا أنهم يرادون بذلك لما في قلوبهم من الرعب، وذلك لأنهم على وجل من أن يهتك الله أستارهم، ويكشف أسرارهم، يتوقعون الإيقاع بهم ساعة فساعة، ثم أعلم (الله) رسوله بعداوتهم فقال: ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ أن تأمنهم على السر ولا تلتفت إلى ظاهرهم فإنهم الكاملون في العداوة بالنسبة إلى غيرهم، وقوله تعالى: ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ مفسر وهو دعاء عليهم وطلب من ذاته أن يلعنهم ويخزيهم وتعليم للمؤمنين أن يدعوا بذلك، و﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي يعدلون عن الحق تعجبًا من جهلهم وضلالتهم وظنهم الفاسد أنهم على الحق.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ قال الكلبي: لما نزل القرآن على الرسول ﷺ بصفة المنافقين مشى إليه عشائرهم من المؤمنين وقالوا لهم: ويلكم افتضحتم بالنفاق وأهلكتم أنفسكم فأتوا رسول الله وتوبوا إليه من النفاق واسألوه أن يستغفر لكم، فأبوا ذلك وزهدوا في الاستغفار فنزلت، وقال ابن عباس: لما رجع عبد الله بن أبي من أحد بكثير

من الناس مقته المسلمون وعنفوه وأسمعوه المكروه فقال له بنو أبيه: لو أتيت رسول الله ﷺ حتى يستغفر لك ويرضى عنك، فقال: لا أذهب إليه، ولا أريد أن يستغفر لي، وجعل يلوي رأسه فنزلت[١]. وعند الأكثرين إنما دعى إلى الاستغفار لأنه قال: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] وقال: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٧] فقيل له: تعال يستغفر لك رسول الله فقال: ماذا قلت، فذلك قوله تعالى: ﴿لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ وقرئ: (لَوَوْا) بالتخفيف والتشديد للكثرة والكناية قد تُجْعَل جمعًا والمقصود واحد وهو كثير في أشعار العرب قال جرير:

لاَ بَارَكَ اللَّه فِيمَنْ كَانَ يَحْسَبُكُمْ إلاَّ عَلَى العَهْدِ حَتَّى كَانَ مَا كَانَا[٢]

وإنما خاطب بهذا امرأة وقوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي عن استغفار رسول الله ﷺ، ذكر تعالى أن استغفاره لا ينفعهم فقال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ قال قتادة: نزلت هذه الآية بعد قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] وذلك لأنها لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «خيَّرَني ربِّي فلأَزِيدَنَّهُمْ على السَّبْعِينَ»[٣] فأنزل الله تعالى: ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال ابن عباس: المنافقين، وقال قوم: فيه بيان أن الله تعالى يملك هداية وراء هداية البيان، وهي خلق فعل الاهتداء فيمن علم منه ذلك، وقيل: معناه لا يهديهم لفسقهم، وقالت المعتزلة: لا يسميهم المهتدين إذا فسقوا وضلوا، **وفي الآية مباحث:**

البحث الأول: لم شبههم بالخشب المسندة لا بغيره من الأشياء المنتفع بها؟ نقول: لاشتمال هذا التشبيه على فوائد كثيرة لا توجد في الغير: الأولى: قال في (الكشاف): شبهوا في استنادهم وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير، بالخشب المسندة إلى الحائط، ولأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام متروكًا فارغًا غير منتفع به أسند إلى الحائط، فشبهوا به في عدم الانتفاع، ويجوز أن يراد بها الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحائط شبهوا بها في حسن صورهم، وقلة جداوهم، الثانية: الخشب المسندة في الأصل كانت غصنًا طريًا يصلح لأن يكون من الأشياء المنتفع بها، ثم تصير غليظة يابسة، والكافر والمنافق كذلك كان في الأصل صالحًا لكذا وكذا، ثم يخرج عن تلك الصلاحية، الثالثة: الكفرة من جنس الإنس حطب، كما قال تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] والخشب المسندة حطب أيضًا، الرابعة: أن الخشب المسندة إلى الحائط أحد طرفيها إلى جهة، والآخر إلى جهة أخرى، والمنافقون كذلك، لأن المنافق أحد طرفيه وهو الباطن إلى

---

(١) أورده ابن كثير في (تفسيره) (٨/ ١٢٧) وقال: وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الربيع الزهراني حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب عن سعيد بن جبير. . . فذكره ثم قال: وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن جبير.

(٢) الشاعر جرير تقدمت ترجمته.

(٣) مرسل: ورواه الطبري في (تفسيره) (١٤/ ٣٩٧) حديث رقم (١٧٠٣١) من طريق يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة. . . به.

جهة أهل الكفر، والطرف الآخر وهو الظاهر إلى جهة أهل الإسلام، الخامسة: المعتمد عليه الخشب المسندة ما يكون من الجمادات والنباتات، والمعتمد عليه للمنافقين كذلك، وإذا كانوا من المشركين إذ هو الأصنام، إنها من الجمادات أو النباتات.

الثاني: من المباحث أنه تعالى شبههم بالخشب المسندة، ثم قال من بعد ما ينافي هذا التشبيه وهو قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ﴾[المنافقون: ٤] والخشب المسندة لا يحسبون أصلاً، نقول: لا يلزم أن يكون المشبه والمشبه به يشتركان في جميع الأوصاف، فهم كالخشب المسندة بالنسبة إلى الانتفاع وعدم الانتفاع، وليسوا كالخشب المسندة بالنسبة إلى الاستماع وعدم الاستماع للصيحة وغيرها.

الثالث: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ولم يقل: القوم الكافرين أو المنافقين أو المستكبرين مع أن كل واحد منهم من جملة ما سبق ذكره؟ نقول: كل أحد من تلك الأقوام داخل تحت قوله: ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ أي الذين سبق ذكرهم وهم الكافرون والمنافقون والمستكبرون.

قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

أخبر الله تعالى بشنيع مقالتهم فقال: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ كذا وكذا: ﴿يَنفَضُّوا﴾ أي يتفرقوا، وقرئ: (يُنْفِضُوا) من أَنْفَضَ القوم إذا فنيت أزوادهم، قال المفسرون: اقتتل أجير عمر مع أجير عبد الله بن أبي في بعض الغزوات فأسمع أجير عمر عبد الله بن أبي المكروه واشتد عليه لسانه، فغضب عبد الله وعنده رهط من قومه فقال: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، يعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ ثم أقبل على قومه فقال: لو أمسكتم النفقة عن هؤلاء يعني المهاجرين لأوشكوا أن يتحولوا عن دياركم وبلادكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد فنزلت، وقرئ: (لَيَخْرُجَنَّ) بفتح الياء، وقرأ الحسن وابن أبي عبلة: (لَنُخْرِجَنَّ) بالنون ونصب الأعز والأذل، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال مقاتل: يعني مفاتيح الرزق والمطر والنبات، والمعنى أن الله هو الرزاق: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[يونس: ٣١] وقال أهل المعاني: خزائن الله تعالى مقدوراته لأن فيها كل ما يشاء مما يريد إخراجه، وقال الجنيد: خزائن الله تعالى في السماوات الغيوب وفي الأرض القلوب وهو علام الغيوب ومقلب القلوب، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفقهون أن: ﴿أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[يس: ٨٢] وقوله: يقولون: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا﴾ أي من تلك الغزوة وهي غزوة بني المصطلق إلى المدينة فرد الله تعالى عليه وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾

أي الغلبة والقوة ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين وعزهم بنصرته إياهم وإظهار دينهم على سائر الأديان وأعلم رسوله بذلك ولكن المنافقين لا يعلمون ذلك ولو علموه ما قالوا مقالتهم هذه، قال صاحب (الكشاف): ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الأخصاء بذلك كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين، وعن بعض الصالحات وكانت في هيئة رثة ألست على الإسلام وهو العز الذي لا ذل معه، والغنى الذي لا فقر معه، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أن رجلاً قال له: إن الناس يزعمون أن فيك تيهًا قال: ليس بتيه ولكنه عزة فإن هذا العز الذي لا ذل معه والغنى الذي لا فقر معه، وتلا هذه الآية قال بعض العارفين في تحقيق هذا المعنى: العزة غير الكبر ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه وإكرامها عن أن يضعها لأقسام عاجلة دنيوية كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلها فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة، وتختلف من حيث الحقيقة كاشتباه التواضع بالضعة والتواضع محمود، والضعة مذمومة، والكبر مذموم، والعزة محمودة، ولما كانت غير مذمومة وفيها مشاكلة للكبر، قال تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٢٠]وفيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق، والوقوف على حد التواضع من غير انحراف إلى الضعة وقوف على صراط العزة المنصوب على متن من نار الكبر، فإن قيل: قال في الآية الأولى: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ وفي الأخرى ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ فما الحكمة فيه؟ فنقول: ليعلم بالأول قلة كياستهم وفهمهم، وبالثاني كثرة حماقتهم وجهلهم، ولا يفقهون من فَقِه يَفْقَه، كعَلِم يَعْلَم، ومن فَقَهَ يَفْقُه: كعَظُمَ يَعْظُم، والأول لحصول الفقه بالتكلف، والثاني لا بالتكلف، فالأول علاجي، والثاني مزاجي.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿لَا تُلْهِكُمْ﴾ لا تشغلكم كما شغلت المنافقين، وقد اختلف المفسرون منهم من قال: نزلت في حق المنافقين، ومنهم من قال في حق المؤمنين، وقوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ عن فرائض الله تعالى نحو الصلاة والزكاة والحج أو عن طاعة الله تعالى وقال الضحاك: الصلوات الخمس، وعند مقاتل: هذه الآية وما بعدها خطاب للمنافقين الذين أقروا بالإيمان ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي ألهاه ماله وولده عن ذكر الله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي في تجارتهم حيث باعوا الشريف الباقي بالخسيس الفاني وقيل: هم الخاسرون في إنكار ما قال به رسول الله ﷺ من التوحيد والبعث.

وقال الكلبي: الجهاد، وقيل: هو القرآن وقيل: هو النظر في القرآن والتفكر والتأمل فيه

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ قال ابن عباس يريد: زكاة المال و(من) للتبعيض، وقيل: المراد هو الإنفاق الواجب ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي دلائل الموت وعلاماته فيسأل الرجعة إلى الدنيا وهو قوله: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وقيل حضهم على إدامة الذكر، وأن لا يضنوا بالأموال، أي هلا أمهلتني وأخرت أجلي إلى زمان قليل، وهو الزيادة في أجله حتى يتصدق ويتزكى وهو قوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال ابن عباس: هذا دليل على أن القوم لم يكونوا مؤمنين إذ المؤمن لا يسأل الرجعة. وقال الضحاك: لا ينزل بأحد لم يحج ولم يؤد الزكاة الموت إلا وسأل الرجعة وقرأ هذه الآية، وقال صاحب (الكشاف): من قبل أن يعاين ما ييأس معه من الإمهال ويضيق به الخناق ويتعذر عليه الإنفاق، ويفوت وقت القبول فيتحسر على المنع ويعض أنامله على فقد ما كان متمكنًا منه، وعن ابن عباس تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت فلا تقبل توبة ولا ينفع عمل وقوله: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال ابن عباس: أحج وقرئ (وأَكُونَ) وهو على لفظ فأصدق، (وَأَكُنْ)، قال المبرد: وأَكُنْ على ما قبله لأن قوله: ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ جواب للاستفهام الذي فيه التمني والجزم على موضع الفاء، وقرأ أبي: (فَأَتصدق) على الأصل وأكن عطفًا على موضع ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾: وأنشد سيبويه أبياتًا كثيرة في الحمل على الموضع منها:

(مُعَاوِيَ إِنَّنَا بَشَرٌ فَأَسْجِحْ) فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلاَ الْحَدِيدَا[١]

فنصب الحديد عطفًا على المحل والباء في قوله: بالجبال، للتأكيد لا لمعنى مستقل يجوز حذفها وعكسه قول ابن أبي سلمى:

بَدَا لي أني لست مدرك ما مَضَى ولا سابق شيئا إذا كان جائيا[٢]

توهم أنه قال بمدرك فعطف عليه قوله سابق، عطفًا على المفهوم، وأما قراءة أبي عمرو (وأكون) فإنه حمله على اللفظ دون المعنى، ثم أخبر تعالى أنه لا يؤخر من انقضت مدته وحضر أجله فقال: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ يعني عن الموت إذا جاء أجلها، قال في (الكشاف): هذا نفي للتأخير على وجه التأكيد الذي معناه منافاة المنفي، وبالجملة فقوله: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ تنبيه على الذكر قبل الموت: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ تنبيه على الشكر لذلك وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي لو رد إلى الدنيا ما زكى ولا حج، ويكون هذا كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾[الأنعام: ٢٨] والمفسرون على أن هذا خطاب جامع لكل عمل خيرًا أو شرًا وقرأ عاصم (يعملون) بالياء على قوله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ لأن النفس وإن كان واحدًا في اللفظ، فالمراد به الكثير فحمل على المعنى والله أعلم وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) البيت لابن الزبير الأسدي وهو ضمن قصيدة من البحر الوافر وتقدمت ترجمة ابن الزبير الأسدي.
(٢) وابن أبي سلمى تقدمت ترجمته.

سورة المنافقون

مدنِيّةٌ في قول الجميع، وهي إحدى عَشْرة آيةً(٤)

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ روى البخاريُّ عن زيد بن أرْقم قال: كنت مع عَمِّي فسمعتُ عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ ابنِ سلول يقول: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا. وقال: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فذكرتُ ذلك لعمِّي، فذكر عمِّي لرسول الله ﷺ، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى عبد الله بنِ أُبَيٍّ وأصحابِه، فحلفوا ما قالوا، فصدَّقهم رسولُ الله صلى ا لله عليه وسلم وكَذَّبني، فأصابني همٌّ لم يصبني مثلُه، فجلستُ في بيتي، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ» إلى قوله: «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُول اللَّهِ» إلى قوله: «لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ» فأرسل إليَّ رسولُ الله ﷺ، [فقرأها عليَّ] ثم

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٤٧.

قال: «إنَّ الله قد صدقك». خرَّجه الترمذيُّ، وقال: هذا حديث حسن صحيح[١].

وفي الترمذيِّ[٢] عن زيد بنِ أرقم قال: غَزَوْنَا مع رسول الله ﷺ، وكان معنا أناس من الأعراب، فكنَّا نبدر الماء، وكان الأعراب يسبقونا إليه، فيسبق الأعرابيُّ أصحابَه فيملأ الحوض، ويجعل حوله حجارة، ويجعل النِّطْع عليه حتى تجيء أصحابه. قال: فأتى رجل من الأنصار أعرابيًّا، فأرْخَى زمامَ ناقته لتشربَ، فأَبَى أن يَدَعَه، فانتزع حجراً فغاض الماء، فرفع الأعرابيُّ خشبةً، فضرب بها رأس الأنصاريِّ فشَجَّه، فأتى عبدَ الله بنَ أبَيٍّ - رأس المنافقين - فأخبره - وكان من أصحابه - فغضب عبدُ الله بنُ أبَيٍّ ثم قال: لا تُنْفِقُوا على مَن عند رسول الله حتى ينفضُّوا مِن حوله - يعني: الأعراب - وكانوا يحضرون رسولَ الله ﷺ عند الطعام، فقال عبد الله: إذا انفضُّوا من عند محمد فَأْتوا محمَّداً بالطعام، فليأكل هو ومَن عنده. ثم قال لأصحابه: لئن رجعتم إلى المدينة لَيُخْرِجَنّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. قال زيد: وأنا رِدْف عمِّي، فسمعتُ عبدَ الله ابنَ أُبَيٍّ، فأخبرت عمِّي، فانْطَلَق فأخبَر رسولَ الله ﷺ، فأرسل إليه رسولُ الله ﷺ فَحَلَفَ وجَحَد. قال: فصدَّقه رسولُ الله ﷺ وكَذَّبني. قال: فجاء عمِّي إليَّ فقال: ما أردتَ إلَّا أن مَقَتَك رسول الله ﷺ وكَذَّبك والمنافقون. قال: فوقع عليَّ من جرأتهم ما لم يقع على أحد. قال: فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ في سفرٍ قد خفَقْتُ برأسي من الهَمِّ، إذ أتاني رسولُ الله ﷺ فَعَرك أذني وضحك في وجهي، فما كان يَسُرُّني أنَّ لي بها الخُلْد في الدنيا. ثم إنَّ أبا بكر لحقني فقال: ما قال لكَ رسولُ الله ﷺ؟ قلت: ما قال شيئاً، إلا أنَّه عَرَك أذني، وضحك في وجهي، فقال: أَبْشِرْ! ثم لحقني عمرُ، فقلتُ له مثلَ قولي لأبي بكر. فلما أصبحنا، قرأ رسول الله ﷺ سورةَ المنافقين. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

---

(١) البخاري (٤٩٠١) وما بين حاصرتين منه، والترمذي (٣٣١٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٩٣٣٣)، وهو عند مسلم (٢٧٧٢) بنحوه.

(٢) برقم (٣٣١٣) بنحوه، والخبر نقله المصنف عن الواحدي في أسباب النزول ص٤٥٧-٤٥٨ واللفظ منه.

وسئل حُذيفة بن اليَمَان عن المنافق فقال: الذي يصف الإسلام ولا يعمل به. وهم اليومَ شرٌّ منهم على عهد رسول الله ﷺ؛ لأنَّهم كانوا يكتمونه، وهم اليوم يظهرونه(١).

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعَد أخلَف، وإذا اؤْتُمِنَ خان»(٢). وعن عبد الله بن عمرو أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعَها: إذا اؤْتُمِنَ خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجَر»(٣). أخبر عليه الصلاة والسلام أنَّ من جمع هذه الخصال كان منافقاً، وخبره صدق. وروي عن الحسن أنَّه ذكر له هذا الحديث فقال: إنَّ بني يعقوب حدَّثوا فكذبوا، ووعدوا فأخلفوا، وأُتُمِنوا فخانوا(٤). إنَّما هذا القول من النبيِّ ﷺ على سبيل الإنذار للمسلمين، والتحذير لهم أن يعتادوا هذه الخصال؛ شَفَقًا أن تُفْضِيَ بهم إلى النفاق. وليس المعنى: أنَّ من بدرت منه هذه الخصال من غير اختيار واعتياد، أنَّه منافق. وقد مضى في سورة «براءة»(٥) القول في هذا مستوفًى، والحمد لله. وقال

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٣ ، وقول حذيفة أخرجه وكيع في الزهد (٤٧١)، ومن طريقه عبد الله بن أحمد في السنة (٨٠٦)، وابن أبي شيبة ١٥/ ١١٥ ، والفريابي في صفة المنافق (٧٠)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٨١-٢٨٢ . وفي إسناده: أبو يحيى، وهو: عبيد بن كرب، ذكره البخاري في التاريخ الكبير ٦/ ٣ ، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٥/ ٤١٣ ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً.

(٢) البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، وهو عند أحمد (٨٦٨٥).

(٣) سلف ١٠/ ٣١٢ .

(٤) أخرج العقيلي في الضعفاء الكبير ٣/ ٧ عن عبد العزيز بن أبي روَّاد قال: أخبر عطاء عن الحسن أنه كان يقول: ثلاث من كن فيه فهو منافق. فقال عطاء: أبا سعيد، قد حدَّث إخوة يوسف فكذبوا، ووعدوا فأخلفوا، واؤتمنوا فخانوا، فمنافقين كانوا؟! قال: فصحت بهم صيحة. قال: قلت: أنت سمعت هذا من عطاء؟ قال: فاصفرَّ لونه. وهو عند الخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق ١/ ٤٠ عن محمد المحرم، عن عطاء بنحوه، وفي آخره قال الحسن: صدق عطاء هكذا الحديث، وهذا في المنافقين. وينظر فيض القدير ١/ ٦٣ .

(٥) ١٠/ ٣١٢ .

رسول الله ﷺ: «المؤمن إذا حدَّث صدق، وإذا وعد أنجز، وإذا اؤتمنَ وَفَّى»[١].
والمعنى: المؤمن الكامل إذا حدَّث صدق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ قيل: معنى «نَشْهَدُ» نحلف. فعبَّر عن الحَلِف بالشهادة؛ لأنَّ كلَّ واحد من الحلف والشهادة إثبات لأمر مُغَيَّب، ومنه قول قيس بن ذَرِيح:

وأشهد عند الله أني أحِبُّها فهذا لها عندي فما عندها لِيَا[٢]

ويحتمل أن يكون ذلك محمولاً على ظاهره أنَّهم يشهدون أنَّ محمداً رسول الله ﷺ؛ اعترافاً بالإيمان، ونفياً للنفاق عن أنفسهم، وهو الأشبه[٣]. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ كما قالوه بألسنتهم. ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: فيما أظهروا من شهادتهم وحَلِفهم بألسنتهم. وقال الفرَّاء[٤]: «وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ» بضمائرهم، فالتكذيب راجع إلى الضمائر. وهذا يدلُّ على أنَّ الإيمان تصديق القلب، وعلى أنَّ الكلام الحقيقيَّ كلام القلب. ومن قال شيئاً واعتقد خلافه، فهو كاذب[٥]. وقد مضى هذا المعنى في أول «البقرة»[٦] مستوفى. وقيل: أكذبهم الله في أيمانهم[٧]، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٢٠٠) ومن طريقه إسحاق بن راهويه كما في إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري ١/ ١٥٧ عن الزبير ﷺ بزيادة. ونقل البوصيري عن ابن حجر قوله: هكذا رواه إسحاق في مسند الزبير بن العوام، وهكذا رواه أحمد بن منصور الرمادي عن عبد الرزاق، ورواه زهير بن معاوية وغير واحد عن أبي إسحاق، عن الزبير بن عدي، ورواه غيرهم عن أبي إسحاق، عن الزبير غير منسوب، فإن كان معمر حفظه فهو صحيح الإسناد لكنه منقطع، وإن كان زهير حفظه فهو معضل.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٣، والبيت في ديوان مجنون ليلى قيس بن الملوَّح ص٢٩٤ و٣٠٠، ولم نقف عليه من قول قيس بن ذريح صاحب لبنى. وأخباره في معجم الشعراء ٢/ ٦٢٨.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٣.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٥٨.

(٥) الوسيط ٤/ ٣٠٢.

(٦) عند الآية (٨).

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٤.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ أي: سُترة[١]. وليس يرجع إلى قوله: «نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ»، وإنَّما يرجع إلى سبب الآية التي نزلت عليه، حسب ما ذكره البخاريُّ والترمذيُّ عن ابن أُبَيٍّ أنَّه حَلَفَ ما قال، وقد قال[٢]. وقال الضَّحَّاك: يعني حلفهم بالله: «إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ»[٣]. وقيل: يعني بأيمانهم ما أخبر الرَّبُّ عنهم في سورة «براءة» إذ قال: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ [الآية: ٧٤].

الثانية: من قال: أُقْسِم بالله، أو: أَشْهد بالله، أو: أَعْزِم بالله، أو: أَحلف بالله، أو: أَقسمتُ بالله، أو: أَشهدت بالله، أو: أَعزمت بالله، أو: أَحلفتُ بالله، فقال في ذلك كلِّه: «بالله» فلا خلاف أنَّها يمين[٤]. وكذلك عند مالك وأصحابه إن قال: أُقْسِم، أو: أَشْهد، أو أَعْزِم، أو: أَحلف، ولم يقل: «بالله»، إذا أراد «بالله». وإن لم يرد «بالله» فليس بيمين. وحكاه الكِيَا[٥] عن الشافعيِّ، قال الشافعيُّ[٦]: إذا قال: أشهد بالله. ونوى اليمينَ، كان يميناً. وقال أبو حنيفة وأصحابه: لو قال: أشهد بالله لقد كان كذا. كان يميناً[٧]، ولو قال: أشهد لقد كان كذا. دون النِّيَّة، كان يميناً لهذه الآية؛ لأنَّ الله تعالى ذكر منهم الشهادة ثم قال: «اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً». وعند الشافعيِّ[٨] لا يكون ذلك يمينًا وإن نوى اليمين؛ لأنَّ قوله تعالى: «اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٠٠ ، والحديث سلف قريباً.

(٣) الوسيط ٤/ ١٢٣ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٥١ .

(٤) الكافي لابن عبد البر ١/ ٤٤٨ ، وما بعده منه أيضاً.

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ٤١٧ .

(٦) في الأم ٧/ ٥٦ .

(٧) بدائع الصنائع ٤/ ١٣-١٤ .

(٨) في الأم ٧/ ٥٥ .

جُنَّةً» ليس يرجع إلى قوله: «قَالُوا نَشْهَدُ»، وإنَّما يرجع إلى ما في «براءة» من قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ [الآية: ٧٤].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرضوا، وهو من الصدود. أو صرفوا المؤمنين عن إقامة حكم الله عليهم من القتل، والسَّبي، وأخذ الأموال، فهو من الصدِّ، أو منعوا الناسَ عن الجهاد بأن يتخلَّفوا، ويقتدي بهم غيرهم. وقيل: فصدُّوا اليهود والمشركين عن الدخول في الإسلام، بأن يقولوا: هانحن كافرون بهم، لو كان محمد حقًّا لعرف هذا منَّا، ولجعلنا نكالًا. فبيَّن الله أنَّ حالهم لا يخفى عليه، ولكن حكمه أنَّ من أظهر الإيمان أجرى عليه في الظاهر حكم الإيمان. ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بئست أعمالهم الخبيثة ـ من نفاقهم، وأيمانهم الكاذبة، وصدِّهم عن سبيل الله ـ أعمالاً.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾

هذا إعلام من الله تعالى بأنَّ المنافق كافر، أي: أقرُّوا باللسان، ثم كفروا بالقلب(١). وقيل: نزلت الآية في قوم آمنوا، ثم ارتدوا ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: خُتم عليها بالكفر ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الإيمان ولا الخير. وقرأ زيد بن عليٍّ: «فَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ» (٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ أي: هيئاتهم ومناظرهم. ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ يعني عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ. قال ابن عباس: كان عبد الله بن أُبَيٍّ وسِيمًا جسيمًا صحيحًا صبِيحًا ذَلِق اللسان، فإذا قال سمع النبيُّ ﷺ مقالته(٣).

---

(١) الوسيط ٤/ ٣٠٢.

(٢) الكشاف ٤/ ١٠٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٧٢، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٥٦ ونسبها إلى الأعمش.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٤٨، وفيه: فصيحاً، بدل صبيحاً. ووردت العبارتان معاً عند الزمخشري في =

وصفه الله بتمام الصورة وحسن الإبانة(١). وقال الكلبيُّ: المراد ابن أُبَيٍّ، وجَدّ بن قيس، ومُعَتِّب بن قُشير، كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة(٢). وفي «صحيح مسلم»(٣): وقوله: «كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ» قال: كانوا رجالًا أجملَ شيء، كأنَّهم خشب مسندةٌ. شبَّههم بخُشب مسنَّدة إلى الحائط لا يسمعون ولا يعقلون، أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام(٤). وقيل: شبَّههم بالخُشُب التي قد تآكلت، فهي مسندة بغيرها، لا يعلم ما في بطنها(٥).

وقرأ قنبُل وأبو عمرو والكسائيُّ: «خُشْبٌ» بإسكان الشين(٦). وهي قراءة البَرَاء بن عازب، واختيار أبي عبيد(٧)؛ لأنَّ واحدتها خَشَبة. كما تقول: بَدَنة وبُدْن، وليس في اللغة فَعَلَة يجمع على فُعُل(٨). ويلزم من ثقلها أن تقول: البُدُن، فتقرأ: «والبُدُن»(٩) [الحج: ٣٦]. وذكر اليزيديُّ أنَّه جماع الخشباء(١٠)، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ [عبس: ٣٠] واحدتها: حديقة غلباء. وقرأ الباقون بالتثقيل، وهي رواية البَزِّيِّ عن ابن كَثِير، وعيَّاش عن أبي عمرو، وأكثر الروايات عن عاصم. واختاره أبو حاتم، كأنَّه جمع خِشاب وخُشُب، نحو ثَمرة وثِمار وثُمُر. وإن شئت جمعت خشبة على خُشب كما قالوا: بَدَنَة وبُدْن وبُدُن. وقد رُوي عن ابن المسيّب فتح الخاء والشين في «خُشُب». قال سِيبويه: خَشَبة وخُشُب، مثل بَدَنة وبدن. قال: ومثله بغير هاء: أَسَد وأُسْد، ووَثَن ووُثْن. وتقرأ: خُشُب، وهو جمع الجمع، خشبة وخِشاب وخُشُب، مثل

= الكشاف ٤/ ١٠٩، وذَلَقُ اللسان: حِدَّته. اللسان (ذلق).

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧٦.

(٢) تفسير الرزاي ٣٠/ ١٤ ولم يعزه للكلبي.

(٣) برقم (٢٧٧٢)، وهو عند البخاري (٤٩٠٣)، وأحمد (١٩٣٣٤) عن زيد بن أرقم ﷺ.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٤٨.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٢ بنحوه.

(٦) السبعة ص٦٣٦، والتيسير ص٢١١.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٢.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٣٣.

(٩) وهي قراءة الحسن وعيسى. القراءات الشاذة ص٩٥.

(١٠) الكشاف ٤/ ١٠٩.

ثمرة وثمار وثُمُر[١]. والإسناد: الإمالة، تقول: أسندت الشيء، أي: أملته. و«مُسَنَّدَة» للتكثير[٢]، أي: استندوا إلى الأيمان بحقن دمائهم.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ﴾ أي: كلَّ أهل صيحة عليهم، هم العدُوُّ. فـ«هم العَدُوّ» في موضع المفعول الثاني؛ على أنَّ الكلام لا ضميرَ فيه[٣]. يصفهم بالجُبْن والخَوَر. قال مقاتل والسُّدِّيُّ: أي: إذا نادى منادٍ في العسكر - إن انفلتت دابة، أو أُنشِدت ضالَّة - ظنُّوا أنَّهم المرادون؛ لما في قلوبهم من الرعب[٤]. كما قال الشاعر وهو الأخطل:

مازلت تحسب كلَّ شيء بعدهم   خيلاً تَكُرُّ عليهمُ ورجالَا[٥]

وقيل: «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ» كلام ضميره فيه لا يفتقر إلى ما بعد، وتقديره: يحسبون كلَّ صيحة عليهم أنَّهم قد فُطن بهم وعُلم بنفاقهم؛ لأنَّ للرِّيبة خوفًا. ثم استأنف الله خطابَ نبيِّه ﷺ فقال: «هُمُ الْعَدُوُّ» وهذا معنى قول الضَّحَّاك وقيل: يحسبون كلَّ صيحة يسمعونها في المسجد أنَّها عليهم، وأنَّ النبيَّ ﷺ قد أمر فيها بقتلهم، فهم أبدًا وَجِلون من أن يُنزل الله فيهم أمرًا يُبيح به دماءهم، ويهتك به أستارهم[٦]. وفي هذا المعنى قول الشاعر:

فلو أنها عُصْفورةٌ لحسبتها   مُسَوَّمَةً تَدْعُو عُبَيْدًا وأَزْنَمَا[٧]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٣٣، وقراءة ابن المسيب في البحر المحيط ٨/ ٢٧٢، وأوردها الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٠٩ ولم ينسبها.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٤٨.

(٣) الكشاف ٤/ ١٠٩.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٢، وتفسير الرازي ٣٠/ ١٥ عن مقاتل.

(٥) الكشاف ٤/ ١٠٩، ولم نقف على البيت في ديوان الأخطل، بل ورد في ديوان جرير ١/ ٥٣ [وهكذا نسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣١٢] ضمن قصيدة يهجو بها الأخطل. وورد فيه: عليكم، بدل: عليهم. وهي الأَوْلى.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٥.

(٧) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٦٨، والبيت للعوَّام بن شوذب يصف فيه جبن بسطام بن قيس كما في الحيوان للجاحظ ٥/ ٢٤٠ و٦/ ٤٣٠، والمعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٩٢٧ حيث يقول: لو أن عصفورة طارت لحسبتها - من جبنك - خيلاً معلمة، تدعو عبيداً وأزنما، أي شعارهم: يال عبيد أزنم.

بطن من بني يَرْبُوع، ثم وصفه الله بقوله: «هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ» حكاه عبد الرحمن ابن أبي حاتم[١]. وفي قوله تعالى: «فَاحْذَرْهُمْ» وجهان: أحدهما: فاحذر أن تثقَ بقولهم، أو تميل إلى كلامهم. الثاني: فاحذر مُمَايلتهم لأعدائك، وتخذيلهم لأصحابك.

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: لعنهم اللهُ، قاله ابن عباس وأبو مالك ـ وهي كلمة ذمٍّ وتوبيخ. وقد تقول العرب: قاتله اللهُ ما أشعره! فيضعونه موضعَ التعجُّب ـ وقيل: معنى «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ» أي: أحلَّهم محلَّ من قاتله عدوٌّ قاهر؛ لأنَّ الله تعالى قاهر لكلِّ معاند. حكاه ابن عيسى[٢]. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: يكذبون، قاله ابن عباس. قتادة: معناه: يعدلون عن الحقِّ. الحسن: معناه: يصرفون عن الرشد. وقيل: معناه: كيف تضلُّ عقولهم عن هذا[٣] مع وضوح الدلائل، وهو من الإفك وهو الصرف[٤]. و«أنَّى» بمعنى كيف، وقد تقدَّم[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ لمَّا نزل القرآن بصفتهم، مشى إليهم عشائرهم وقالوا: افتُضِحتم بالنفاق، فتوبوا إلى رسول الله من النفاق، واطلبوا أن يستغفر لكم. فَلَوَّوْا رؤوسهم، أي: حَرَّكوها استهزاءً وإباءً، قاله ابن عباس[٦]. وعنه أنَّه كان لعبد الله بن أُبَيٍّ موقف في كلِّ سبب يحضُّ على طاعة الله

(١) النكت والعيون ٦/ ١٥ وما بعده منه أيضاً.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٦ عدا ما بين معترضتين.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٦ وعزا القول الأخير للسدي.

(٤) اللسان (أفك).

(٥) ٤/ ٧-٨ .

(٦) تفسير الرازي ٣٠/ ١٥ وعزاه للكلبي.

وطاعة رسوله، فقيل له: وما ينفعك ذلك ورسول الله ﷺ عليك غضبان، فَأْتِه يَستغفرْ لك. فأبى وقال: لا أذهب إليه.

وسبب نزول هذه الآيات أنَّ النبيَّ ﷺ غزا بني الـمُصطلِق على ماء يقال له: المُرَيْسِيع، من ناحية قُدَيد، إلى الساحل، فازدحم أجير لعمر يقال له: جهْجَاه، مع حَليف لعبد الله بن أُبيٍّ يقال له: سِنان، على ماء بالـمُشَلَّلِ، فصرخ جهجاهُ بالمهاجرين، وصرخ سِنانُ بالأنصار، فلطَم جهجاهُ سِناناً، فقال عبد الله بنُ أُبَيٍّ: أَوَقد فعلوها! واللهِ ما مَثَلُنا ومَثَلُهم إلا كما قال الأوَّل: سَمِّن كلبك يَأْكُلْك، أما واللهِ لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ ـ يعني: أُبيًّا ـ الأذلَّ ـ يعني محمَّدًا ﷺ ـ ثم قال لقومه: كُفُّوا طعامكم عن هذا الرجل، ولا تنفقوا على مَن عندَه حتى ينفضوا ويتركوه. فقال زيد بن أَرْقَم ـ وهو من رهط عبد الله ـ: أنتَ واللهِ الذليل المُنتَقَص في قومك، ومحمَّد ﷺ في عِزٍّ من الرحمن، ومودَّة من المسلمين، واللهِ لا أُحِبُّك بعد كلامكَ هذا أبدًا. فقال عبد الله: اسكت، إنَّما كنت ألعب. فأخبر زيدٌ النبيَّ ﷺ بقوله، فأقسم بالله ما فَعَلَ ولا قال، فعذره النبيُّ ﷺ. قال زيد: فوجدت في نفسي، ولَامَنِي الناس، فنزلت سورة المنافقين في تصديق زيد، وتكذيب عبد الله. فقيل لعبد الله: قد نزلت فيكَ آيات شديدة، فاذهب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لك، فألوى برأسه، فنزلت الآيات. خرَّجه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ بمعناه. وقد تقدَّم أوَّل السورة[1].

وقيل: «يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ» يستتبكم من النفاق؛ لأنَّ التوبة استغفار. ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يُعرِضون عن الرسول متكبِّرين عن الإيمان[2].

---

(١) ص٤٩٤-٤٩٥ من هذا الجزء، والخبر ذكره الواقدي في المغازي ٢/ ٤١٥-٤١٨، وابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٢٩٠ وما بعدها، والواحدي في أسباب النزول ص٤٥٨-٤٦١، والبغوي في التفسير ٤/ ٣٤٨-٣٤٩، وأخرجه الطبري في التفسير ٢٢/ ٦٦٦-٦٦٩ عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر، وعن عبد الله ابن أبي بكر، وعن محمد بن يحيى بن حبَّان. قال: كلٌّ قد حدَّثني بعض حديث بني المصطلق. . . . الخبر».

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٧.

وقرأ نافع: «لَوَوْا» بالتخفيف[١]. وشدَّد الباقون، واختاره أبو عبيد، وقال: هو فعل لجماعة. النحَّاس: وغلط في هذا؛ لأنَّه نزل في عبد الله بن أُبَيٍّ لما قيل له: تعالَ يَستغفرْ لك رسولُ الله ﷺ، حَرَّك رأسه استهزاءً. فإن قيل: كيف أَخبر عنه بفعل الجماعة؟ قيل له: العرب تفعل هذا إذا كَنَّت عن الإنسان. أنشد سِيبويه لحسان:

ظننتم بأن يَخْفى الذي قد صنعتمُ ... وفينا رسولٌ عنده الوَحْي واضِعُه[٢]

وإنَّما خاطب حَسَّانُ ابنَ الأبيرِق في شيء سَرَقه بمكَّة، وقصته مشهورة.

وقد يجوز أن يخبر عنه وعمَّن فعل فعله. وقيل: قال ابن أُبَيٍّ لمَّا لَوَى رأسه: أمرتموني أن أومِن، فقد آمنت، وأن أُعطي زكاة مالي، فقد أعطيت، فما بقي إلا أن أسجد لمحمَّد[٣]!.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ يعني كلّ ذلك سواء، لا ينفع استغفارك شيئاً؛ لأنَّ اللهَ لا يغفر لهم. نظيره: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢]، ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]. وقد تقدَّم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: من سبَق في عِلْم الله أنَّه يموت فاسقاً.

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٧﴾

ذكرنا سبب النزول فيما تقدَّم. وابن أُبَيٍّ قال: لا تُنفقوا على مَن عند محمَّد حتى

---

(١) السبعة ص٦٣٦، والتيسير ص٢١١.

(٢) سلف ٧/ ١١٤.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٦٥، والبغوي ٤/ ٣٥٠.

ينفضُّوا، حتى يتفرَّقوا عنه(١). فأعلمهم الله سبحانه أنَّ خزائن السماوات والأرض له، يُنفِقُ كيف يشاء. قال رجل لحاتم الأصَمِّ: من أين تأكل؟ فقال: «وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»(٢). وقال الجُنَيد: خزائن السماوات: الغيوب، وخزائن الأرض: القلوب؛ فهو علَّام الغيوب ومُقلِّب القلوب(٣). وكان الشِّبْليُّ يقول: «وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» فأين تذهبون. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أنَّه إذا أراد أمرًا يسَّره.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾

القائل ابن أُبَيٍّ، كما تقدَّم. وقيل: إنَّه لمَّا قال: «لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ» ورجع إلى المدينة لم يلبث إلا أيَّاماً يسيرة حتى مات، فاستغفر له رسول الله ﷺ، وألبسه قميصه، فنزلت هذه الآية: «لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ». وقد مضى بيان هذا كلِّه في سورة «براءة»(٤) مستوفًى. وروي أنَّ عبد الله بنَ عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول قال لأبيه: والذي لا إله إلا هو لا تدخل المدينة حتى تقول: إنَّ رسول الله ﷺ هو الأعَزُّ وأنا الأذلُّ؛ فقاله(٥). تَوَهَّموا أنَّ العزَّة بكثرة الأموال والأتباع، فبيَّن الله أنَّ

---

(١) الكشاف ٤/ ١١١.

(٢) أخرجه البغدادي في تاريخ بغداد ٨/ ٢٤٤، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣٣٥).

(٣) تفسير الرازي ٣٠/ ١٥.

(٤) ١٠/ ٣٢٠.

(٥) أخرج الترمذي (٣٣١٥) عن جابر بن عبد الله أنه قال: كنَّا في غزاة ـ قال سفيان: يرون أنها غزوة بني المصطلق ـ فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال المهاجري: يَالَ المهاجرين. وقال الأنصاري: يَالَ الأنصار. فسمع ذلك النبيُّ ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية»؟ قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار. فقال رسول الله ﷺ: «دعوها؛ فإنها منتنة». فسمع ذلك عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول، فقال: أَوَقَدْ فعلوها، واللهِ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنقَ هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه». وقال غير عمر: فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله: واللهِ لا تنفلت حتى تُقِرَّ أنَّك الذليل، ورسول الله ﷺ العزيز، ففعل. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

العِزَّة والمَنَعَة والقُوَّة لله.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾

حذَّر المؤمنين أخلاقَ المنافقين، أي: لا تشتغلوا بأموالكم كما فعل المنافقون إذ قالوا ـ للشُّح بأموالهم ـ: لا تُنفِقُوا على مَن عند رسول الله. ﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الحجِّ والزكاة[1]. وقيل: عن قراءة القرآن. وقيل: عن إدامة الذكر[2]. وقيل: عن الصلوات الخمس، قاله الضحاك[3]. وقال الحسن: جميع الفرائض؛ كأنَّه قال: عن طاعة الله[4]. وقيل: هو خطاب للمنافقين، أي: آمنتم بالقول فآمنوا بالقلب. ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ أي: من يشتغل بالمال والولد عن طاعة ربِّه[5] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ يدلُّ على وجوب تعجيل أداء الزكاة، ولا يجوز تأخيرها أصلاً[6]. وكذلك سائر العبادات إذا تعيَّن وقتها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ

(١) أخرجه الطبري ٢٢/ ٦٧٣ عن سفيان.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧٧ .

(٣) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٧٠-٦٧١ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣٥٠ .

(٦) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤١٧ .

﴿ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ سأل الرجعةَ إلى الدنيا ليعملَ صالحاً. وروى الترمذيُّ عن الضَّحَّاك بن مُزاحم، عن ابن عباس قال: من كان له مال يبلِّغه حجَّ بيتِ ربِّه، أو تجب عليه فيه زكاةٌ، فلم يَفعلْ، سَألَ الرجعةَ عند الموت. فقال رجل: يا ابن عباس، اتَّقِ الله، إنَّما سأل الرجعةَ الكفَّارُ؟ فقال: سأتلو عليك بذلك قرآنًا: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ ولاَ أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قِبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ» إلى قوله: «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» قال: فما يوجب الزكاة؟ قال: إذا بلغ المالُ مئتين فصاعداً. قال: فما يوجب الحجَّ؟ قال: الزاد والراحلة[١].

قلت: ذكره الحَلِيمِيُّ أبو عبد الله الحسين بن الحسن في كتاب «مِنهاج الدِّين»[٢] مرفوعاً فقال: وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «من كان عنده مال يبلِّغه الحج. . .» الحديث؛ فذكره. وقد تقدَّم في «آل عمران» لفظه[٣].

الثالثة: قال ابن العربيّ[٤]: أخذ ابن عباس بعموم الآية في إنفاق الواجب خاصَّةً دون النفل؛ فأمَّا تفسيره بالزكاة فصحيح كلُّه عموماً وتقديراً بالمئتين. وأما القول في الحجِّ ففيه إشكال؛ لأنَّا إن قلنا: إنَّ الحجَّ على التراخي، ففي المعصية في الموت قبل الحجِّ، خلاف بين العلماء؛ فلا تُخَرَّج الآية عليه. وإن قلنا: إنَّ الحجَّ على الفور، فالآية في العموم صحيح؛ لأنَّ من وجب عليه الحجُّ، فلم يؤدِّهِ، لَقيَ مِنَ الله ما يودُّ أنَّه رجع ليأتيَ بما ترك من العبادات. وأمَّا تقدير الأمر بالزاد والراحلة، ففي ذلك خلاف مشهور بين العلماء. وليس لكلام ابن عباس فيه مدخل؛ لأجل أنَّ الرجعة

---

(١) الترمذي (٣٣١٦)، وسلف ٥/ ٢٣٢ عن ابن عباس مرفوعاً. قال الترمذي عن الموقوف: وهذا أصح. . . .

(٢) ٢/ ٣٤١ .

(٣) ٥/ ٢٣٢ .

(٤) في أحكام القرآن له ٤/ ١٨٠١-١٨٠٢ .

والوعيد لا يدخل في المسائل المجتهد فيها ولا المختلف عليها، وإنَّما يدخل في المتَّفق عليه. والصحيح تناوله للواجب من الإنفاق كيف تصرف بالإجماع أو بنص القرآن؛ لأجل أنَّ ما عدا ذلك لا يتطرَّق إليه تحقيق الوعيد.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ﴾ أي: هَلَّا[1]؛ فيكون استفهاماً. وقيل: «لا» صلة؛ فيكون الكلام بمعنى التمنِّي. ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ نصب على جواب التمنِّي بالفاء. ﴿وَأَكُن﴾ عطف على «فَأَصَّدَّقَ» وهي قراءة أبي عمرو وابن مُحَيْصِن ومجاهد. وقرأ الباقون: «وَأَكُنْ» بالجزم، عطفاً على موضع الفاء؛ لأنَّ قوله: «فَأَصَّدَّق» لو لم تكن الفاء، لكان مجزوماً، أي: أصدق. ومثله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ﴾ [الأعراف:١٨٦] فيمن جزم[2]. قال ابن عباس: هذه الآية أشدُّ على أهل التوحيد؛ لأنَّه لا يتمنَّى الرجوع في الدنيا أو التأخير فيها أحدٌ له عند الله خير في الآخرة.

قلت: إلا الشهيدَ فإنَّه يتمنَّى الرجوع حتى يقتل؛ لما يرى من الكرامة. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشرٍّ[3]. وقراءة العامة بالتاء على الخطاب. وقرأ أبو بكر عن عاصم والسُّلَميّ بالياء[4]؛ على الخبر عمَّن مات وقال هذه المقالة.

تمت السورة بحمد الله وعونه

تم الجزء العشرون من تفسير القرطبي
ويليه الجزء الواحد والعشرون، ويبدأ بتفسير سورة التغابن

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/١٧٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/٤٣٦-٤٣٩، والقراءة في السبعة ص٦٣٧، والتيسير ص٢١١، والمحرر الوجيز ٥/٣١٦.

(٣) الوسيط ٤/٣٠٥.

(٤) السبعة ص٦٣٧، والتيسير ص٢١١.

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

مَدنيَّةٌ، وآيُها إحدى عشرةَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ الشَّهادةُ: إخبارٌ عن علمٍ؛ مِن الشُّهودِ، وهوَ الحضورُ والاطِّلاعُ، ولذلكَ صدَّقَ المشهودَ بهِ وكذَّبَهم في الشَّهادةِ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ لأنَّهم لم يعتقدوا ذلك.

(٢) ـ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ حلفَهُم الكاذبَ أو شهادتَهُم هذهِ، فإنها تجري مجرَى الحلِفِ في التَّوكيدِ.

وقُرِئَ: (إيمانَهُم)[1].

﴿جُنَّةً﴾ وقايةً عن القتلِ والسَّبيِ.

﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صَدًّا أو صُدودًا.

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مِن نِفاقِهم وصَدِّهِم.

(٣) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الكلامِ المتقدِّمِ؛ أي: ذلكَ القولُ الشَّاهدُ على

---

(١) وهي قراءة الحسن، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٧)، و«المحتسب» (٢/ ٣٢٢).

سـوءِ أعمالِهـم، أو إلـى الحـالِ المذكـورةِ مـن النِّفـاقِ والكـذبِ والاسـتجنانِ بالإيمـانِ(١).

﴿بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ بسببِ أنَّهُم آمنوا ظاهرًا ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ سرًّا، أو آمنُوا إذا رأَوا آيةً ثمَّ كفرُوا حينما سمعُوا من شياطِينهم شُبهةً.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حتى تمرَّنُوا على الكفرِ واستحكمُوا فيهِ.

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ حقيقةَ الإيمانِ ولا يَعرفونَ صِحَّتَهُ.

(٤) - ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لضخَامَتِها وصَباحَتِها.

﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لذَلاقَتِهـم وحَـلاوةِ كلامِهـم، وكان ابنُ أبيٍّ جسـيمًا فصيحًـا يحضـرُ مجلسَ رسـولِ اللهِ في جمـعٍ مثلِـهِ، فيُعجَبُ بهيكَلِهـم ويُصغَى إلى كلامِهم(٢).

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ حالٌ من الضَّميرِ المجرورِ فـي ﴿لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: تسمعُ لما يقولونه مشبَّهينَ بأخشابٍ مَنصوبةٍ مسندةٍ إلى الحائطِ في كونِهم أشباحًا خاليةً عن العلمِ والنَّظرِ.

وقيل: الخُشُبُ جمع خشباءَ، وهـي الخشبةُ التي نَخِرَ جوفُها، شبِّهُوا بها في حسنِ المَنْظَرِ وقبحِ المَخْبَرِ.

---

(١) قوله: «بالإيمان»: بكسر الهمزة وفتحها. انظر: «حاشية الخفاجي»، وضبط في نسخة الفاروقي بالوجهين.

(٢) قوله: «فيعجب» و«يصغى» بالبناء للمجهول، لأنه عليه الصلاة والسلام لا يعجبه مثل هؤلاء الصور الفارغة. انظر: «حاشية الخفاجي».

وقرأ أبو عمرٍو[١] والكِسائيُّ وقُنبل عن ابنِ كثيرٍ بسكون الشِّينِ على التَّخفيفِ[٢]، أو على أنه كبُدْن في جمعِ بَدَنةٍ.

﴿يَحسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: واقعةً عليهم لجُبنِهم واتهامِهم، فـ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ثاني مفعولَي ﴿يَحسِبُونَ﴾[٣]، ويجوزُ أن يكونَ صلتَهُ والمفعولُ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾، وعلى هذا يكونُ الضَّميرُ للكلِّ، وجمعُه بالنَّظرِ إلى الخبرِ، لكنَّ ترتُّبَ قولِه: ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ عليهِ يدلُّ على أنَّ الضَّميرَ للمنافقينَ.

﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ دعاءٌ عليهم، وهو طلبٌ من ذاتِهِ أن يلعنَهُم، أو تعليمٌ للمؤمنينَ أن يدعُوا عليهم بذلكَ.

﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ كيفَ يُصرفونَ عن الحقِّ.

(٥) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ عَطَفُوها إعراضًا واستكبارًا عن ذلكَ.

وقرأ نافع بتخفيف الواو[٤].

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يعرِضونَ عن الاستغفارِ[٥] ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عَن الاعتذارِ.

(٦) ـ ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ لرُسوخِهم في الكفرِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «وقرأ أبو بكر».

(٢) وهي بخلف عن قنبل فروى ابن مجاهد عنه الإسكان، وروى ابن شنبوذ عنه الضم، وقراءة الباقين: ﴿خُشُبٌ﴾، انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٦)، و«التيسير» (ص: ٢١١)، و«النشر» (٢/ ٢١٧).

(٣) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي بكسر السين، والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ١٩١)، و«النشر» (٢/ ٢٣٦).

(٤) وقراءة الباقين بالتشديد، انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٦)، و«التيسير» (ص: ٢١١).

(٥) في نسخة الفاروقي: «يعرضون عن استكبار». وفي الهامش كالمثبت نسخة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن مَظِنَّةِ الاستصلاحِ[1] لانهماكِهم في الكفرِ والنِّفاقِ.

(٧) - ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي: للأنصارِ ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ يعنونَ فقراءَ المهاجرينَ.

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بيدِهِ الأرزاقُ والقِسَمُ.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلكَ لجهلِهم باللهِ.

(٨) - ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ رُوِيَ أنَّ أعرابيًّا نازعَ أنصاريًّا في بعضِ الغزواتِ على ماءٍ، فضربَ الأعرابيُّ رأسَهُ بخشبةٍ فشكى إلى ابنِ أبيٍّ فقال: لا تنفِقُوا على من عندَ رسولِ اللهِ حتى ينفضُّوا، وإذا رَجَعْنا إلى المدينةِ فلَيُخرج الأعزُّ الأذلَّ. عنى بالأعزِّ نفسَهُ وبالأذلِّ رسولَ اللهِ[2].

---

(١) في نسخة الخيالي: «الإصلاح».

(٢) ذكر الأثر بتمامه الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ٤٥٢ - ٤٦٣)، وعزاه لأهل التفسير وأصحاب السير، وكذلك تلميذه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٣١ - ٤٣٣)، ورواه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٢/ ٢٩٠) في غزوة بني المصطلق من طريق ابن إسحاق، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٦٦٦) من طريق ابن إسحاق.

قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٤/ ٣٤): واعلَمْ أن الحديث رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما مختصراً من حديث زيد بن أرقم، اهـ.

ورواه البخاري (٤٩٠٠) وأطرافه، ومسلم (٢٧٧٢).

وروى طرفاً منه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه، وفيه بعد قول ابن أبي: والله لئن رَجَعْنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، قال عمر: دعني أضربُ عنقَ هذا المنافق، فقال: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتلُ أصحابه».

وقُرِئَ: (ليَخْرُجَنَّ) بفتحَ الياءِ[1]، و(ليُخْرَجَنَّ) على بناءِ المفعولِ[2]، و(لنُخرِجَنَّ) بالنُّونِ ونصبِ (الأعزَّ) و(الأذلَّ)[3] على هذهِ القراءاتِ[4]؛ مَصْدرٌ أو حالٌ على تقديرِ مُضافٍ، كخُرُوجِ أو إخراجِ أو مثل.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وللهِ الغلبةُ والقوَّةُ ولِمَن أعزَّهُ مِن رسولهِ والمؤمنينَ.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مِنْ فرطِ جهلِهم وغُرورِهم.

(٩) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لا يُشْغِلْكم تدبيرُها والاهتمامُ بها عن ذكرِهِ كالصَّلاةِ وسائرِ العباداتِ المذكِّرة للمعبودِ، والمرادُ نهيُهم عن اللَّهوِ بها، وتوجيهُ النَّهيِ إليها للمبالغةِ، ولذلكَ قال:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: اللَّهوَ بها، وهو الشُّغلُ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٥)، و«البحر» (٢٠/ ٣٤٥)، ونسبها ابن عطية وأبو حيان للكسائي والفراء عن قوم لم يسمهم، وانظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٦٠)، وليس فيه التصريح بكونها قراءة، ولفظه: «ويجوز في القراءة...» فذكرها.

ومعناها كما قال ابن خالويه: ليخرجن العزيز منها ذليلاً، وليصيرن العزيز ذليلاً، قال: حكاه الخليل في كتاب «العين»، قلت: لم أجد ذلك في مطبوعه، وقاله الفراء في الموضع المذكور من «معاني القرآن».

(٢) انظر: «الكشاف» (٩/ ١٢٨)، و«البحر» (٢٠/ ٣٤٥) دون نسبة.

(٣) وهي قراءة الحسن وابن أبي عبلة، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٨)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٤٨)، و«الكشاف» (٩/ ١٢٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٥)، و«البحر» (٢٠/ ٣٤٥)، وهي في «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٦٠) دون نسبة.

(٤) يعني القراءات الثلاث.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنَّهم باعوا العظيمَ الباقي بالحقيرِ الفاني.

(١٠) ـ ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ بعضَ أموالِكُم ادِّخارًا للآخرةِ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أن يرى دلائلَهُ ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ﴾ أمهلتني ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أمدٍ غيرِ بعيدٍ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ فأتصدَّقَ ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بالتَّدارُكِ.

وجزمُ ﴿أكن﴾ للعطفِ على موضعِ الفاءِ وما بعدَهُ.

وقرأَ أبو عمرٍو ﴿وأكونَ﴾ منصوبًا[١] عطفًا على أصَّدق، وقُرِئَ بالرَّفعِ[٢] على: وأنا أكونُ فيكونُ عِدَةً بالصَّلاحِ.

(١١) ـ ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ ولن يُمهلَها ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ آخرُ عمرِها.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمُجازٍ عليهِ.

وقرأَ أبو بكرٍ بالياءِ[٣] ليوافقَ ما قبلَهُ في الغَيبةِ.

عن النبيِّ ﷺ: «من قرأَ سورةَ المنافقينَ بَرِئَ من النِّفاقِ»[٤].

***

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٧)، و«التيسير» (ص: ٢١١).

(٢) انظر: «الكشاف» (٩/ ١٣٢)، و«البحر» (٢٠/ ٣٤٨).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٧)، و«التيسير» (ص: ٢١١).

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣١٩)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٠٢). وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(٦٣) سورة المنافقون مدنية وآياتها إحدى عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ (١) ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤)﴾

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين، أنهم إنما يتفوهون بالإسلام ظاهراً فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك بل على الضد من ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾ أي إذا حضروا عندك واجهوك بذلك، وأظهروا لك ذلك، وليس كما يقولون ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله فقال: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾. ثم قال تعالى: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ أي فيما أخبروا به لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه، ولهذا كذّبهم بالنسبة إلى اعتقادهم، وقوله تعالى: ﴿اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله﴾ أي اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة ليصدقوا فيما يقولون فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس، ولهذا قال تعالى: ﴿فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾، وقوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم آمنوا، ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ أي إنما قدر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران، واستبدالهم الضلالة بالهدى، ﴿فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ أي فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير فلا تعي ولا تهتدي. وقوله تعالى: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾ أي وكانوا أشكالاً حسنة وذوي فصاحة وألسنة، وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في

غاية الضعف والخور والهلع والجزع، ولهذا قال تعالى: ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ أي كلما وقع أمر أو خوف، يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم، كما قال تعالى: ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ﴾ فهم جهامات وصور بلا معاني، ولهذا قال تعالى: ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ أي كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال، ، وفي الحديث: « إن للمنافقين علامات يعرفون بها: تحيتهم لعنة، وطعامهم نهبة، وغنيمتهم غلول، ولا يقربون المساجد إلا هجراً، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً، مستكبرين، لا يألفون ولا يؤلفون، خشب بالليل، صُخب بالنهار »[1] .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين عليهم لعائن الله أنهم ﴿ إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم ﴾ أي صدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك واحتقاراً لما قيل لهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون ﴾ ثم جازاهم على ذلك فقال تعالى: ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ . عن سفيان ﴿ لوّوا رؤوسهم ﴾ حوّل سفيان وجهه على يمينه، ونظر بعينه شزراً، ثم قال: هو هذا[2] ، وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في (عبد الله بن أبي ابن سلول) كما سنورده قريباً إن شاء الله تعالى . قال قتادة والسدي: أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ، وذلك أن غلاماً من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ ، فحدثه بحديث عنه وأمر شديد، فدعاه رسول الله ﷺ فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعزلوه وأنزل الله فيه ما تسمعون، وقيل لعدو الله: لو أتيت رسول الله ﷺ ، فجعل يلوي رأسه، أي لست فاعلاً .

وقال أبو إسحاق في قصة بني المصطلق: فبينا رسول الله ﷺ مقيم هناك اقتتل على الماء (جهجاه بن سعيد الغفاري) وكان أجيراً لعمر بن الخطاب و (سنان بن يزيد)، فقال سنان: يا معشر الأنصار ، وقال الجهجاه: يا معشر المهاجرين، وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند (عبد الله بن أُبي) فلما سمعها قال: قد ثاورونا في بلادنا والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: سَمّن كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً ، وقال يزيد بن مرة : سُخُب بالنهار أي بالسين .

(٢) رواه عنه ابن أبي حاتم .

الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من عنده من قومه، وقال: هذا ما صنعتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها، فسمعها (زيد بن أرقم) رضي الله عنه فذهب بها إلى رسول الله ﷺ، وهو غليم عنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخبره الخبر، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله! مر عباد بن بشر فليضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «فكيف إذا تحدث الناس يا عمر أن محمداً يقتل أصحابه، لا، ولكن ناد يا عمر: الرحيل»، فلما بلغ عبدالله بن أُبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ، أتاه فاعتذر إليه، وحلف بالله ما قال، ما قال عليه (زيد بن أرقم) وكان عند قومه بمكان، فقالوا: يا رسول الله عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل، وراح رسول الله ﷺ مهجراً في ساعة كان لا يروح فيها، فلقيه (أسيد بن الحضير) رضي الله عنه، فسلم عليه بتحية النبوة، ثم قال: والله لقد رحت في ساعة مبكرة ما كنت تروح فيها، فقال رسول الله ﷺ: «أما بلغك ما قال صاحبك ابن أُبي؟ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعز منها الأذل»، قال: فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل، ثم قال: ارفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاء الله بك، وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، فإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً، فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا وليلته حتى أصبحوا، وصدر يومه حتى اشتد الضحى، ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث، فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فناموا، ونزلت سورة المنافقين، وقال الحافظ أبو بكر البيهقي، عن جابر بن عبدالله يقول: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجُلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة»، وقال (عبدالله بن أبي بن سلول) وقد فعلوها: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ، ثم كثر المهاجرون بعد ذلك، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»(١). وروى الإمام أحمد، عن زيد بن أرقم قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقال عبدالله ابن أُبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته قال، فحلف عبدالله ابن أُبي أنه لم يكن شيء من ذلك، قال، فلامني قومي وقالوا: ما أردت إلى هذا؟ قال، فانطلقت فنمت كئيباً حزيناً، قال، فأرسل إليَّ نبي الله ﷺ فقال: «إن الله قد أنزل عذرك وصدقك»، قال، فنزلت هذه الآية: ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾ حتى بلغ ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾(٢).

طريق أُخرى: قال الإمام أحمد رحمه الله، عن زيد بن أرقم قال: خرجت مع عمي في غزاة فسمعت عبدالله بن أُبي بن سلول يقول لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي، فذكره عمي لرسول الله ﷺ، فأرسل إليَّ رسول الله ﷺ فحدثته، فأرسل إلى عبدالله بن أُبي بن سلول وأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، فكذّبني رسول الله ﷺ وصدّقه، فأصابني همّ لم

(١) رواه البيهقي، ورواه أحمد والبخاري ومسلم بنحوه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ورواه البخاري عند هذه الآية.

يصبني مثله قط، وجلست في البيت، فقال عمي: ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك! قال، حتى أنزل الله: ﴿إذا جاءك المنافقون﴾، قال، فبعث إليَّ رسول الله ﷺ فقرأها رسول الله ﷺ عليَّ، ثم قال: «إن الله قد صدقك»[1]. وقال محمد بن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبدالله بن عبدالله بن أبي لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أُبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أُبي يمشي في الناس، فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»[2]، وذكر عكرمة أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف (عبدالله بن عبدالله) على باب المدينة واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه (عبدالله بن أبي) قال له ابنه: وراءك، فقال: مالك ويلك؟ فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله ﷺ شكا إليه عبدالله بن أُبي ابنه، فقال ابنه عبدالله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ، فقال: أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن، وقال الحميدي في مسنده: قال عبدالله بن عبدالله بن أُبي بن سلول لأبيه: «والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل، قال: وجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد أن تقتل أبي، فوالذي بعثك بالحق لئن شئت أن آتيك برأسه لأتيتك، فإني أكره أن أرى قاتل أبي[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾

يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره، وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك، ومخبراً لهم بأنه من التهى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عن طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ثم حثهم على الإنفاق في طاعته فقال: ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾، فكل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ليستعتب ويستدرك ما فاته وهيهات، كما قال تعالى: ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾، وقال تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعونِ * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾، ثم قال تعالى: ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) رواه محمد بن إسحاق بن يسار

(٣) رواه الحميدي في مسنده.

أي لا ينظر أحداً بعد حلول أجله، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً في قوله وسؤاله، ممن لو رد لعاد إلى شر مما كان عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿ والله خبير بما تعملون﴾ . روى الترمذي، عن ابن عباس قال: من كان له مال يبلغه حج بيت ربه، أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت، فقال رجل: يا ابن عباس اتق الله، فإنما يسأل الرجعة الكفار، فقال: سأتلو عليك بذلك قرآناً: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾ إلى قوله ﴿ والله خبير بما تعملون﴾ قال: فما يوجب الزكاة؟ قال: إذا بلغ المال مائتين فصاعداً، قال: فما يوجب الحج؟ قال: الزاد والبعير[1] . وروى ابن أبي حاتم، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ الزيادة في العمر فقال: «إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، وإنما الزيادة في العمر أن يرزق الله العبد ذرية صالحة يدعون له، فيلحقه دعاؤهم في قبره»[2]

[آخر تفسير سورة المنافقين ، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]

* * *

(١) أخرجه الترمذي عن الضحّاك عن ابن عباس ، قال ابن كثير : ورواية الضحّاك عن ابن عباس فيها انقطاع .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء .

تفسير سورة المنافقون

وهى مدنية [١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين : أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاؤوا النبى ﷺ ، فأما فى باطن الأمر فليسوا كذلك ، بل على الضدّ من ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : **﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾** أى : إذا حَضَروا عندك [٢] واجهوك بذلك ، وأظهروا لك ذلك ، وليسوا كما يقولون: ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله ، فقال : **﴿ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾** .

ثم قال : **﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾** أى : فيما أخبروا به ، وإن كان مطابقاً للخارج؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه ؛ ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم .

وقوله : **﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾** أى : اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة والحَلْفات الآثمة ، ليصدقوا فيما يقولون ، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم ، فاعتقدوا أنهم مسلمون [٣] ، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون ، وهم من [٤] شأنهم إنهم كانوا [٥] فى الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبَالا ، فحصل بهذا القدر ضرر كبير [٦] على كثير من الناس . ولهذا قال تعالى : **﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾** . ولهذا كان الضحاك بن مُزَاحم يقرؤها : « اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً » أى : تصديقهم الظاهر جُنَّة ، أى : تقية يتقون به القتل . والجمهور يقرؤها [٧] : **﴿ أَيْمَانَهُمْ ﴾** جميع يمين .

[وقوله] [٨] : **﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾** أى : إنما قُدّر عليهم

(١) فضائل هذه السورة ذكرت فى أول سورة الجمعة .
(٢) فى أ : « إليك ». (٣) فى أ : « فاعتقدهم مسلمين » . (٤) فى م : « فى » .
(٥) فى أ : « كانوا يقولون » . (٦) فى أ : « كثير » . (٧) فى م،أ : « قرؤوها » .
(٨) زيادة من م ، أ .

النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران ، واستبدالهم الضلالة بالهدى ﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ أى: فلا يصل إلى قلوبهم هدى ، ولا يخلص إليها خير ، فلا تعى ولا تهتدى .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ أى : كانوا أشكالاً حسنة وذوى فصاحة وألسنة ، إذا سمعهم السامع يصغى إلى قولهم [1] لبلاغتهم ، وهم مع ذلك فى غاية الضعف والخَور والهلع والجزع والجبن ؛ ولهذا قال : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف ، يعتقدون ، لجبنهم ، أنه نازل بهم ، كما قال تعالى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب:١٩] ، فهم جَهَامات وصور بلا معانى . ولهذا قال : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أى : كيف يُصرَفون عن الهدى إلى الضلال .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا عبد الملك بن قُدَامة الجُمَحى ، عن إسحاق بن بكر[2] بن أبى الفرات ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى. عن أبيه ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه، عن النبىﷺ قال: « إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نُهبَة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هُجْرا ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرا ، مستكبرين لا يألَفون ولا يُؤلَفون ، خُشُبٌ بالليل، صُخُب بالنهار » .وقال يزيد مرَّةً : سُخُبٌ بالنهار [3] .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين ــ عليهم لعائن الله ــ أنهم ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ أى : صدوا وأعرضوا عما قيل لهم ، استكباراً عن ذلك ، واحتقارا لما قيل لهم. ولهذا قال : ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ . ثم جازاهم على ذلك فقال : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ، كما قال فى سورة «براءة »، وقد تقدم الكلام عن ذلك ، وإيراد الأحاديث المروية هنالك .

---

(١) فى م :« إلى قلوبهم » . (٢) فى أ :« بكير » .
(٣) المسند (٢/ ٢٩٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابنُ أبى عُمَر العَدَنى [١] قال : قال سفيان ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ : قال ابن أبى عمر : حولَ سفيان وجهه على يمينه ، ونظر بعينه شزْرا ، ثم قال : هم[٢] هذا .

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل فى عبد الله بن أبى ابن سلول ، كما سنورده قريباً إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان .

وقد قال محمد بن إسحاق فى السيرة :ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة ـ يعنى مَرْجعَه من أحد ـ وكان عبد الله بن أبى ابن سلول ـ كما حدثنى ابن شهاب الزهرى ـ له مقام يَقُومه كل جُمُعة لا يُنكر، شرَفاً له من نفسه ومن قومه ، وكان فيهم شريفا ، إذا جلس النبى ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام ، فقال : أيها الناس ، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم ، أكرمكم الله به ، وأعزكم به ، فانصروه وعزّروه ،واسمعوا له وأطيعوا . ثم جلس ،حتى إذا صَنَع يوم أحُد ما صنع ـ يعنى مرجعه بثلث الجيش ـ ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا : اجلس ، أى عدو الله ، لست لذلك بأهلٍ ، وقد صنعتَ ما صنعتَ . فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بَجْراً ؛ أن قُمت أشدد أمره . فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا : ويلك . ما لك ؟ قال : قمتُ أشدد أمره ، فوثب على رجال من أصحابه يجذبوننى ويعنفوننى ، لكأنما قلت بَجْراً ، أن قمت أشدد أمره . قالوا : ويلك . ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ . فقال : والله ما أبتغى أن يستغفر لى [٣] .

وقال قتادة والسدى : أنزلت هذه الآية فى عبد الله بن أبى ، وذلك أن غلاما من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ فحدثه بحديث عنه وأمر شديد ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك ، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعَذَموه [٤] ، وأنزل الله فيه ما تسمعون، وقيل لعدو [٥] الله : لو أتيت رسول الله ﷺ ؟ فجعل يلوى رأسه ، أى : لست فاعلا [٦].

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الربيع الزهرانى ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا أيوب ، عن سعيد بن جبير : أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل منزلا لم يرتحل حتى يصلى فيه ، فلما كانت غزوة تبوك بلغه أنَ عبدَ الله بن أبى ابن سلول قال : ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ . فارتحل قبل أن ينزل آخر النهار ، وقيل لعبد الله بن أبى : ائت النبى ﷺ حتى يستغفر لك . فأنزل الله : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ .

وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن جبير . وقوله : إن ذلك كان فى غزوة تبوك ، فيه نظر ، بل ليس بجيد ؛ فإنَ عبد الله بن أبى ابن سلول لم يكن ممن خرج فى غزوة تبوك ، بل رجع بطائفة من الجيش . وإنما المشهور عند أصحاب المغازى والسير أن ذلك كان فى غزوة المُرَيسيع ، وهى غزوة بنى المصطلق .

---

(١) فى أ : « العدوى » .

(٢) فى م ، أ : « هو » .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠٥) .

(٤) فى م: « وعزلوه » ، وفى أ : « وعرموه » .

(٥) فى م ، أ : « وقيل لعبد » .

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٨/ ٧١) .

قال يونس بن بُكَيْر ، عن ابن إسحاق : حدثنى محمد بن يحيى بن حَبَّان ، وعبد الله بن أبى بكر ، وعاصم بن عُمَر بن قتادة ، فى قصة بنى المصطلق : فبينا رسول الله مقيم هناك ، اقتتل على الماء جَهجاه بن سعيد الغفارى ــ وكان أجيرا ــ لعمر بن الخطاب ، وسنان بن وَبْر [١] قال ابن اسحاق: فحدثنى محمد بن يحيى بن حَبَّان قال : ازدحما على الماء فاقتتلا ، فقال سنان : يا معشر الأنصار. وقال الجهجاه: يا معشر المهاجرين ــ وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبى ــ فلما سمعها قال : قد ثاوَرُونا فى بلادنا . والله ما مثلُنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل : «سَمن كلبك يأكلك » . والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من عنده من قومه وقال : هذا ما صنعتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها . فسمعها زيد بن الأرقم ، فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو غُلَيّمٌ ــ وعنده بن الخطاب رضى الله عنه ــ فأخبره الخبر ، فقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله مرُ عَبّاد بن بشْر [٢] فليضرب عنقه . فقال ﷺ : « فكيف إذا تحدث الناس ــ يا عمر ــ أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن ناد يا عمر فى الرحيل » .

فلما بلغ عبدَ الله بن أبى أن ذلك قد بلغ رسولَ الله ﷺ ، أتاه فاعتذر إليه ، وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم ــ وكان عند قومه بمكان ــ فقالوا : يا رسول الله ، عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل .

وراح رسول الله ﷺ مُهجَراً فى ساعة كان لا يروح فيها ، فلقيه أسيد بن الحضير فسلم عليه بتحية النبوة ، ثم قال : والله لقد رُحتَ فى ساعة مُنكَرةَ ما كنت تروح فيها . فقال رسول الله ﷺ : « أما بلغك [٣] ما قال صاحبك ابن أبى ؟ . زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيخرج الأعز منها الأذل » . قال : فأنت ــ يا رسول الله ــ العزيزُ وهو الذليل . ثم قال : يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الْخرَزَ لِنُتَوّجه ، فإنه ليرى [٤] أن قد استلبتَه ملكا .

فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا ، وليلته حتى أصبحوا ، وصَدرَ يومه حتى اشتد الضحى. ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث ، فلم يأمن الناس أن وجدوا مَس الأرض فناموا ، ونزلت سورة المنافقين [٥] .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو بكر بن إسحاق ، أخبرنا بشر بن موسى ، حدثنا الحُمَيدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا [٦] عمرو بن دينار ، سمعت جابر بن عبد الله يقول : كنا مع رسول الله ﷺ فى غَزَاة فكَسَعَ رجلٌ من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال الأنصارى : ياللأنصار . وقال المهاجرى : يا للمهاجرين . فقال رسول الله ﷺ : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها منتنة » . وقال عبد الله بن أبى ابن سلول ــ وقد فعلوها ــ : والله لئن رجعنا

(١) فى م : « سنان بن يزيد » . (٢) فى أ : « بشير » . (٣) فى م : « ما بلغك » .
(٤) فى م : « يرى » .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٩٠ ــ٢٩٢) .
(٦) فى م :« عن » .

إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال جابر : وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك ، فقال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق . فقال النبى ﷺ : « دعه ؛ لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » [(١)] .

ورواه الإمام أحمد عن حسين بن محمد المروزى ، عن سفيان بن عيينة [(٢)] . ورواه البخارى عن الحميدى ، ومسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة وغيره ، عن سفيان ، به نحوه [(٣)] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن الحكم ، عن محمد بن كعب القُرَظى ، عن زيد بن أرقم قال : كنت مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، فقال عبد الله بن أبى : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال : فأتيت النبى [(٤)] ﷺ فأخبرته ، قال : فحلف عبد الله بن أبى أنه لم يكن شىء من ذلك . قال : فلامنى قومى وقالوا : ما أردتَ إلى هذا؟ قال : فانطلقت فنمتُ كئيبا حَزينا ، قال : فأرسل إلى نبى الله ﷺ فقال : « إن الله قد أنزل عُذركَ وصَدّقك » . قال : فنزلت هذه الآية ﴿ **هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا** ﴾ حتى بلغ : ﴿ **لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ** ﴾ .

ورواه البخارى عند هذه الآية ، عن آدم بن أبى إياس ، عن شعبة [(٥)] ، ثم قال : « وقال ابن أبى زائدة ، عن الأعمش ، عن عمرو ، عن ابن أبى ليلى ، عن زيد ، عن النبى ﷺ ورواه الترمذى والنسائى عندها أيضا من حديث شعبة ، به [(٦)] .

طريق أخرى عن زيد : قال الإمام أحمد ، رحمه الله ، حدثنا يحيى بن آدم ، ويحيى بن أبى بُكَير[(٧)] قال: حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق قال : سمعت زيد بن أرقم ـ وقال ابن أبى بُكَير [(٨)] : عن زيد بن أرقم ـ قال : خرجت مع عمى فى غزاة ، فسمعت عبد الله بن أبى ابن سلول يقول لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فذكرت ذلك لعمى ، فذكره عمى لرسول الله ﷺ فأرسل إلىَّ رسولُ الله ﷺ فحدثته فأرسل إلى عبد الله بن أبى ابن سلول وأصحابه فحلفوا ما قالوا : فكَذبنى رسول الله ﷺ وصَدّقه ، فأصابنى هَمٌّ لم يصبنى مثله قط ، وجلست فى البيت ، فقال عمى : ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك. قال: حتى أنزل الله : ﴿ **إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ** ﴾ قال : فبعث إلىَّ رسول الله ﷺ فقرأها رسول الله على ، ثم قال : « إن الله قد صدقك » [(٩)] .

ثم قال أحمد أيضا : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا زهير ، حدثنا أبو إسحاق : أنه سمع زيد

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى (٤/٥٣) .

(٢) المسند (٣/٣٩٢) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٠٧) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٤) .

(٤) فى م :« رسول الله » .

(٥) المسند (٤/٣٦٨) وصحيح البخارى برقم (٤٩٠٢) .

(٦) سنن الترمذى برقم (٣٣١٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٩٤) .

(٧) فى أ : « بكر » .

(٨) فى م : « وقال أبو بكر » .

(٩) المسند (٤/٣٧٣) .

ابن أرقم يقول : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فأصاب الناس شدةٌ ، فقال عبد الله بن أبى لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله . وقال : ، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فأتيت النبى ﷺ فأخبرته بذلك ، فأرسل إلى عبد الله بن أبى فسأله ، فاجتهد يمينَه ما فعل . فقالوا : كذب زيد يا رسول الله . فوقع فى نفسى ما قالوا ، حتى أنزل الله تصديقى : ﴿ **إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ** ﴾ . قال : ودعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم ، فلووا رؤوسهم . وقوله تعالى : ﴿ **كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ** ﴾ قال : كانوا رجالا أجمل شىء .

وقد رواه البخارى ومسلم والنسائى ، من حديث زهير (١) . ورواه البخارى أيضا والترمذى من حديث إسرائيل ، كلاهما عن عن أبى إسحاق عمرو (٢) بن عبد الله السَّبيعىّ الهمدانى الكوفى ، عن زيد ، به (٣) .

طريق أخرى عن زيد : قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا عبد بن حُمَيد ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن السدى ، عن أبى سعد (٤) الأزدى قال : حدثنا زيد بن أرقم قال : غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا أناس من الأعراب ، فكنا نَبتَدرُ الماء ، وكان الأعراب يسبقوننا يسبق الأعرابى أصحابه يملأ الحوض ، ويجعل حوله حجارة ، ويجعل النّطع عليه حتى يجىء أصحابه . قال : فأتى رجل من الأنصار الأعرابى ، فأرخى زمام ناقته لتشرب ، فأبى أن يدعه ، فانتزع حجراً ففاض الماء ، فرفع الأعرابى خشبة ، فضرب بها رأس الأنصارى فشجّه ، فأتى عبدَ الله ابن أبىّ رأسَ المنافقين فأخبره ـ وكان من أصحابه ـ فغضب عبد الله بن أبى ، ثم قال : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ـ يعنى الأعراب ـ وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام . فقال عبد الله لأصحابه : إذا انفضوا من عند محمد فائتوا محمداً بالطعام ، فليأكل هو ومن عنده ، ثم قال لأصحابه : إذا رجعتم إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل . قال زيد : وأنا ردْف عَمّى ، فسمعتُ عبد الله فأخبرت عَمّى ، فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه رسول الله ، فحلف وجَحَد ، قال : فصدقه رسول الله ﷺ وكذبنى ، فجاء إلى عمى فقال : ما أردت إلا أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبكَ والمسلمون . فوقع على من الغم ما لم يقع على أحد قط ، فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ فى سفر وقد خَفَقْتُ برأسى من الهم ، إذ أتانى رسول الله ﷺ فَعَرَكَ أذنى ، وضحك فى وجهى ، فما كان يسرنى أن لى بها الخلد فى الدنيا ، ثم إن أبا بكر لحقنى وقال: ما قال لك رسول الله ﷺ قلت : ما قال لى رسول الله شيئاً ، غير أن عرك أذنى وضحك فى وجهى. فقال : أبشر . ثم لحقنى عمر فقلت له مثل قولى لأبى بكر . فلما أن أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين .

انفرد بإخراجه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح . وهكذا رواه الحافظ البيهقى عن

---

(١) المسند (٤/ ٣٧٣) وصحيح البخارى برقم (٤٩٠٣) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٩٨) .

(٢) فى أ : « عن أبى إسحاق عن عمرو » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٠٠) وسنن الترمذى برقم (٣٣١٢)

(٤) فى م: « عن أبى سعيد » .

الحاكم عن أبى العباس محمدين أحمد المحبوبى ، عن سعيد بن مسعود ، عن عبيد الله بن موسى ، به (١). وزاد بعد قوله « سورة المنافقين » ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ﴾ حتى بلغ : ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾ حتى بلغ : ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ .

وقد روى عبد الله بن لهيعة ، عن أبى الأسود ، عن عُروَةَ بن الزبير فى المغازى ـ وكذا ذكر موسى بن عقبة فى مغازيه أيضا هذه القصة بهذا السياق ، ولكن جعلا الذى بَلَّغ رسول الله ﷺ كلام عبد الله بن أبىّ ابن سلول إنما هو أوس بن أرقم ، من بنى الحارث بن الخزرج. فلعله مبلغ آخر ، أو تصحيف من جهة السمع ، والله أعلم .

وقد قال ابن أبى حاتم ، رحمه الله : حدثنا محمد بن عزيز الأيلى ، حدثنى سلامة ، حدثنى عقيل ، أخبرنى محمد بن مسلم ، أن عروة بن الزبير وعمرو بن ثابت الأنصارى أخبراه : أن رسول الله ﷺ غزا عزوة المريسيع ، وهى التى هدم رسول الله ﷺ فيها مناة الطاغية التى كانت بين قفا المُشَلّل وبين البحر ، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فكسر مناة ، فاقتتل رجلان فى غزوة رسول الله ﷺ تلك ، أحدهما من المهاجرين ، والآخر من بَهْز ، وهم حلفاء الأنصار ، فاستعلى الرجل الذى من المهاجرين على البهزى ، فقال البهزى : يا معشر الأنصار ، فنصره رجال من الأنصار، وقال المهاجرى : يا معشر المهاجرين . فنصره رجال من المهاجرين ، حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجال من الأنصار شىء من القتال ، ثم حُجز بينهم فانكفأ كل منافق ـ أو : رجل فى قلبه مرض ـ إلى عبد الله بن أبىّ ابن سلول ، فقال : قد كنت تُرْجَى وتَدفع فأصبحت لا تضر ولا تنفع ، قد تناصرت علينا الجلابيب ـ وكانوا يَدعُون كُلّ حديث هجرة (٢) : الجلابيب ـ فقال عبد الله بن أبى عدو الله : [والله] (٣) لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .قال مالك بن الدخْشُم ـ وكان من المنافقين ـ : أولم أقل لكم لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . فسمع بذلك عمرُ بن الخطاب ، فأقبل يمشى حتى جاء (٤) رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ائذن لى فى هذا الرجل الذى قد أفتن الناس ، أضربُ عنقه ـ يريد عمرُ عبدَ الله بن أبى ـ فقال رسول الله ﷺ لعمر : « أو قاتله أنتَ إن أمرتُك بقتله ؟ » . قال : عمر [نعم](٥) والله لئن أمرتنى بقتله لأضربَنّ عنقه . فقال رسول الله ﷺ : « اجلس » . فأقبل أسيدُ بن الحضير (٦) ـ وهو أحد الأنصار، ثم أحد بنى عبد الأشهل ـ حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ائذن لى فى هذا الرجل الذى قد أفتن الناس [حتى] (٧) أضرب عنقه . فقال رسول الله ﷺ : « أوقاتله أنتَ إن أمرتُك بقتله ؟ » . قال : نعم ، والله لئن أمرتنى بقتله لأضربن بالسيف تحت قُرط أذنيه . فقال رسول الله ﷺ : « اجلس » . ثم قال رسول الله ﷺ : « آذنوا بالرحيل » . فَهَجَّرَ بالناس ، فسار

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣٣١٣) ودلائل النبوة للبيهقى (٤/ ٥٤) .

(٢) فى م :«أهجرة » . (٣) زيادة من م . (٤) فى أ : « حتى أتى » .

(٥) زيادة من م ، أ . (٦) فى م: « حضير » . (٧) زيادة من م .

يومه وليلته والغد حتى متَعَ النهار ، ثم نزل . ثم هَجَّر بالناس مثلها ، فَصبح [١] بالمدينة فى ثلاث سارها من قفا المُشَلَّل فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أرسل إلى عمر فدعاه ، فقال له رسول الله : «أىْ عمر ، أكنت قاتله لو أمرتك بقتله ؟ » قال [٢] عمر : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « والله لو قتلته يومئذ لأرغمتَ أنوف رجال لو أمرتهم اليوم بقتله امتثلوه [٣] فيتحدث الناسُ أنى قد وقعت على أصحابى فأقتلهم صبراً » . وأنزل الله عز وجل : ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ إلى قوله : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ [لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ] [٤] ﴾ الآية .

وهذا سياق غريب ، وفيه أشياء نفيسة لا توجد إلا فيه .

وقال محمد بن إسحاق بن يَسار : حدثنى عاصم بن عُمَر بن قتادة : أن عَبدَ الله بن أبى ــ يعنى لما بلغه ما كان من أمر أبيه ــ أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبَىّ فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ، ما بقى معنا » [٥] .

وذكر عكرمةُ وابن زيد وغيرهما : أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبدُ الله بن عبد الله هذا على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبى قال له ابنه : وراءك . فقال : مالك ؟ ويلك . فقال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذنَ لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الذليل . فلما جاء رسول الله ﷺ ــ وكان إنما يسير ساقة فشكا إليه عبدُ الله بن أبىّ ابنه ، فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له . فأذن له رسول الله ﷺ ، فقال : أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فَجُز الآن .

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير فى مسنده : حدثنا سفيان بن عُيَينة ، حدثنا أبو هارون المدنى قال: قال عبد الله بن عبد الله بن أبى ابن سلول لأبيه : والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول : رسولُ الله ﷺ الأعز وأنا الأذل . قال وجاء النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد أن تقتل أبى ، فو الذى بعثك بالحق ما تأملت وجهه قط هيبة له ، ولئن شئت أن آتيك برأسه لآتينك ، فإنى أكره أن أرى قاتل أبى [٦] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا

---

(١) فى م : « حتى صبح » .
(٢) فى م : « فقال » .
(٣) فى م : « لقتلوه » .
(٤) زيادة من م ، أ .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٩٢) .
(٦) مسند الحميدى (٢/ ٥٢٠) .

جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ .

يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهيا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومخبراً لهم بأنه من التَّلَهِّيَ بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خُلِقَ له من طاعة ربه وذكره ، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ثم حثهم على الإنفاق فى طاعته فقال : ﴿ **وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ ، فكل مُفَرِّط يندم عند الاحتضار ، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً ، يستعتب ويستدرك ما فاته ، وهيهات ! كان ما كان ، وأتى ما هو آت ، وكل بحسب تفريطه ، أما الكفار فكما قال [الله] (١) تعالى: ﴿ **وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ** ﴾ [إبراهيم: ٤٤] . وقال تعالى : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٩٩ ، ١٠٠] .

ثم قال تعالى : ﴿ **وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ أى : لا ينظر أحداً بعد حلول أجله ، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً فى قوله وسؤاله ممن لو رُدَّ لعاد إلى شر مما كان عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ .

وقال أبو عيسى الترمذى : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا جعفر بن عون ، حدثنا أبو جَنَاب الكلبى ، عن الضحاك بن مُزاحم ، عن ابن عباس قال : من كان له مال يبلغه حج بيت ربه ، أو تجب فيه عليه زكاةٌ ، فلم يفعل ، سأل الرجعة عند الموت . فقال رجل : يا ابن عباس ، اتق الله ، فإنما يسأل الرجعة الكفار . فقال : سأتلو عليك بذلك قرآناً : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ [وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا]** (٢) **وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ قال : فما يوجب الزكاة ؟ قال : إذا بلغ المال مائتين فصاعداً . قال : فما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والبعير .

ثم قال : حدثنا عبد بن حُمَيد ، حدثنا عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن يحيى بن أبى حَيَّة ـ وهو أبو جناب الكلبى ـ عن الضحاك ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ ، بنحوه (٣) .

ثم قال : وقد رواه سفيان بن عيينة وغيره ، عن أبى جَنَاب ، عن ابن الضحاك ، عن ابن عباس، من قوله . وهو أصح ، وضعَّف أبا جناب الكلبى .

---

(١) زيادة من أ .

(٢)زيادة من م ،وفى هـ : « إلى قوله » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣١٦).

قلت : رواية الضحاك عن ابن عباس فيها انقطاع ، والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن نُفَيل ، حدثنا سليمان بن عطاء ، عن مسلمة الجهنى ، عن عمه ــ يعنى أبا مشجعة بن رِبْعِى ــ عن أبى الدرداء ، رضى الله عنه ، قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ الزيادة فى العمر فقال : « إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما الزيادة فى العمر أن يرزق الله العبدَ ذُرية صالحة يدعون له ، فليحقه دعاؤهم فى قبره » [١] .

آخر تفسير سورة « المنافقون » [٢] ، ولله الحمد والمنة

---

(١) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣/ ٢٨٥) من طريق الوليد بن عبد الملك، عن سليمان بن عطاء به وسليمان بن عطاء مجمع على ضعفه.

(٢) فى أ :« المنافقين » .

سورة المنافقون[1]

مدنيّة، وهي إحدى عشرةَ آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ أي: حضروا مجلسك ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ مؤكِّدين كلامَهم بـ﴿إِنَّ﴾ و"اللام" للإيذان بأنّ شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم وخلوصِ اعتقادهم ووفورِ رغبتهم ونشاطِهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ اعتراض مقرِّر لمنطوق كلامهم وُسِّط بينه وبين قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ تحقيقًا وتعيينًا لِما نيط به التكذيب مِن أنّهم قالوه عن اعتقاد كما أشيرَ إليه، وإماطةً مِن أوّل الأمر لِما عسى يُتوهَّم مِن توجّه التكذيب إلى منطوق كلامهم، أي: والله يشهد إنّهم لكاذبون فيما ضمّنوا مقالتهم مِن أنّها صادرة عن اعتقاد وطُمأنينة قلبٍ. / والإظهار في موقع الإضمار لذمِّهم والإشعارِ بعلّة الحُكم. [١٩٥ظ]

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢﴾

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ الفاجرة التي مِن جملتها ما حُكي عنهم ﴿جُنَّةً﴾ أي: وقايةً عمّا يتوجّه إليهم مِن المؤاخذة بالقتل والسبي أو غير ذلك. واتّخاذُها جُنّةً عبارة عن إعدادهم وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويتخلّصوا عن المؤاخذة، لا عن استعمالها بالفعل، فإنّ ذلك متأخِّر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية، واتّخاذُ الجُنّة لا بدّ أن يكون قبل المؤاخذة وعن سببها أيضًا،

---

[1] س: المنافقين.

كما يُفصح عنه "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: فصدُّوا مَن أراد الدخول في الإسلام بأنّه عليه السلام ليس برسول ومَن أراد الإنفاق في سبيل الله بالنهي عنه كما سيُحكى عنهم، ولا ريبَ في أنّ هذا الصدّ منهم متقدِّم على حلفهم بالفعل.

وقُرئ: "إيمَانَهُمْ"،[١] أي: ما أظهروه على ألسنتهم، فاتّخاذُه جُنّةً عبارة عن استعماله بالفعل، فإنّه وقاية دون دمائهم وأموالهم، فمعنى قوله تعالى: ﴿فَصَدُّواْ﴾ حينئذ: فاستمرُّوا على ما كانوا عليه مِن الصدود والإعراض عن سبيله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مِن النفاق والصدّ. وفي ﴿سَآءَ﴾ معنى التعجّبِ وتعظيمِ أمرهم عند السامعين.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدَّم مِن القول الناعي عليهم أنّهم أسوأ الناس أعمالًا، أو إلى ما وُصف مِن حالهم في النِّفاق والكذب والاستتار بالإيمان الصُّوري. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه لِما مرّ مرارًا مِن الإشعار ببُعد منزلته في الشرّ. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنّهم ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي: نطقوا بكلمة الشهادة كسائر مَن يدخل في الإسلام، ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ أي: ظهر كفرهم بما شُوهد منهم مِن شواهد الكفر ودلائله، أو نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثمّ نطقوا بالكفر عند شياطينهم.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حتّى تمرّنوا على الكفر واطمأنّوا به. وقُرئ على البناء للفاعل،[٢] وقُرئ: "فَطَبَعَ اللهُ".[٣] ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ حقيقة الإيمان ولا يعرفون حقّيته أصلًا.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن، والرُّهاوي عن الساجي عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ والأعمش وعُبيد بن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن، والرُّهاوي عن الساجي عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٤.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ④﴾

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لضخامتها ويَروقك منظرهم لصَباحة وجوههم، ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لفصاحتهم وذَلاقة ألسنتهم وحلاوة كلامِهم، وكان ابن أُبيّ جسيمًا فصيحًا / يحضر مجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في [١٩٦و] نفر مِن أمثاله وهم رؤساء المدينة، وكان عليه السلام ومَن معه يُعجَبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم. وقيل: الخطاب لكلّ أحد ممّن يصلح للخطاب، ويؤيِّده قراءة: "يُسْمَعْ"[١] على البناء للمفعول.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ في حيِّز الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أو كلام مستأنَف لا محلّ له، شُبّهوا في جلوسهم في مجالس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مستندين فيها بخُشب منصوبة مُسنَّدة إلى الحائط في كونهم أشباحًا خاليةً عن العِلم والخير. وقُرئ: "خُشْبٌ"[٢] على أنّه جمع "خَشَبة" كـ"بُدْن" جمع "بَدَنة". وقيل: هو جَمعُ "خَشباء" وهي الخشبةُ التي دَعِر جوفها، أي: فسَد، شُبّهوا بها في نفاقهم وفساد بواطنهم.[٣] وقُرئ: "خَشَبٌ"[٤] كـ"مَدَرة" و"مَدَر".

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: واقعةً عليهم ضارّةً لهم لجُبنهم واستقرارِ الرعب في قلوبهم. وقيل: كانوا على وَجَل مِن أن يُنزل الله فيهم ما يهتك أستارهم، ويُبيح دماءهم وأموالهم. ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ أي: هم الكاملون في العداوة والراسخون فيها، فإنّ أعدى الأعادي العدوُّ المكاشِر الذي يُكاشِرك وتحت ضلوعه الداء الدويُّ.

والجملة مستأنَفة، وجَعْلُها مفعولًا ثانيًا للحسبان ممّا لا يُساعده النظم الكريم أصلًا، فإنّ "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ لترتيب الأمر بالحذر على كونهم أعدى الأعداء. ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم وطلبٌ مِن ذاته تعالى أن يلعنهم ويُخزيهم،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عطيّة بن سعيد العَوفي والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٣.

٢ قرأ بها أبو عمرو والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.

٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٠٩.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبّاس وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيّب وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٣.

أو تعليمٌ للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك. وقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ تعجيبٌ مِن حالهم، أي: كيف يُصرَفون عن الحقّ إلى ما هم عليه مِن الكفر والضلال.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ عند ظهور جنايتهم بطريق النصيحة ﴿تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ أي: عطفوها استكبارًا ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يُعرِضون عن القائل أو عن الاستغفار ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن ذلك.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ كما إذا جاءوك معتذرين مِن جنايتهم. وقُرئ: "اسْتَغْفَرْتَ"[١] بحذف حرف الاستفهام ثقةً بدلالة ﴿أَمْ﴾ عليه. وقُرئ: "آسْتَغْفَرْتَ"[٢] بإشباع همزة الاستفهام، لا بقلب همزة الوصل ألفًا. ﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ كما إذا أصرّوا على قبائحهم واستكبروا عن الاعتذار والاستغفار.

[١٩٦ظ] ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أبدًا لإصرارهم على الفِسق ورسوخهم في الكفر. / ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الكاملين في الفِسق الخارجين عن دائرة الاستصلاح المنهمِكين في الكفر والنِّفاق. والمراد إمّا هم بأعيانهم، والإظهارُ في موقع الإضمار لبيان غلوِّهم في الفِسق، أو الجنسُ وهم داخلون في زمرتهم دخولًا أوّليًّا.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝﴾

وقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي: للأنصار ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ يعنون فقراء المهاجرين. استئنافٌ جارٍ مَجرى التعليل لفِسقهم،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الصوفي، والأديب، والعنبري عن أبي بكر، والزهريّ، وثابتٍ الأنطاكيّ عن أبي جعفر. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحلواني عن أبي جعفر، والخبازي لفضل عنه. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٤.

أو لعدم مغفرته تعالى لهم. وقُرئ: "حَتَّى يُنفِضُوا"[١] مِن "أنفَض القومُ" إذا فنيت أزوادهم، وحقيقتُه: حان لهم أن يُنفضوا مزاودهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ردٌّ وإبطال لِما زعموا مِن أنّ عدم إنفاقهم يؤدّي إلى انفضاض الفقراء مِن حوله عليه السلام ببيان أنّ خزائن الأرزاق بيد الله تعالى خاصّة يعطي مَن يشاء ويمنع مَن يشاء. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك لجهلهم بالله تعالى وبشئونه، ولذلك يقولون مِن مقالات الكفر ما يقولون.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ رُوي أنّ جَهْجَاه بن سعيد[٢] أجيرَ عمرَ رضي الله عنه نازع سِنانًا الجُهَنيَّ[٣] حليفَ ابن أُبيّ واقتتلا، فصرخ جَهْجَاه يا لَلمهاجرين وسِنان يا لَلأنصار، فأعان جَهْجَاهًا جِعالٌ مِن فقراء المهاجرين ولطَم سِنانًا، فاشتكى إلى ابن أُبيّ، فقال للأنصار: ﴿لَا تُنفِقُوا۟﴾... إلخ، واللهِ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، عنى بالأعزّ نفسه وبالأذلّ جانبَ المؤمنين.[٤]

وإسناد القول المذكور إلى المنافقين لرضاهم به، فرُدّ عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولله الغلبة والقوّة ولِمن أعزّه الله مِن رسوله والمؤمنين لا لغيرهم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعيسى بن عمر. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٥.

٢ هو جهجاه بن سعيد الغفاري، وقيل: ابن قيس، وقيل: ابن مسعود. مِن فقراء المهاجرين، وهو أجير لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه. شهد بيعة الرضوان بالحُديبية، وشهد غزوة المُريسيع مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وهو الذي نازع سِنان بن وبر الجُهني يوم المُرَيسيع الدلو وهما يستقيان الماء، والقصّة مذكورة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ١١٠٨/٥، والإصابة لابن حجر، ٥١٨/١.

٣ هو سِنان الجهني، كان حليفًا في بني سالم مِن الأنصار، شهد المُرَيسيع مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، هو الذي نازع جهجاه بن سعيد يومئذ الدلو، وتنادوا بالقبائل. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٦٧/٥.

٤ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٦٦٧/٢٢، ومعالم التنزيل للبغوي، ١٣١/٨، والكشّاف للزمخشري، ٤٠٩/٤.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مِن فرط جهلِهم وغرورهم فيَهْذون ما يَهْذون. رُوي أنّ عبد الله بن أُبيّ لمّا أراد أن يدخل المدينة اعترضه ابنه عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ، وكان مخلِصًا، وقال: لئن لم تُقرّ لله ورسوله بالعزّ لأضربنّ عنقك، فلمّا رأى منه الجِدّ قال: أشهد أنّ العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين، / فقال [١٩٧و]
النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لابنه: جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يشغلكم الاهتمامُ بتدبير أمورها والاعتناء بمصالحها والتمتّع بها عن الاشتغال بذِكره عزّ وجلّ مِن الصلاة وسائرِ العبادات المذكِّرة للمعبود. والمراد نهيُهم عن التلهّي بها، وتوجيهُ النهي إليها للمبالغة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾... إلخ، [المائدة، ٥/٢].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: التلهّي بالدنيا مِن الدِّين ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: الكاملون في الخسران حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني.

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ أي: بعض ما أعطيناكم تفضّلًا مِن غير أن يكون حصوله مِن جهتكم ادّخارًا للآخرة. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ بأن يشاهد دلائله ويُعاين أماراته ومخايله. وتقديمُ المفعول على الفاعل لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بما قُدّم والتشويق إلى ما أُخّر. ﴿فَيَقُولَ﴾ عند تيقّنه بحلوله ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ أي: أمهلتني ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: أمدٍ قصير ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ بالنصب على جواب التمنّي. وقُرئ: "فَأَتَصَدَّقَ".[١] ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بالجزم عطفًا

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعيسى بن عمر. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٦.

على محلّ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، كأنّه قيل: إن أخّرتني أصّدّق وأكن. وقُرئ: "وَأَكُونَ"[١] بالنصب عطفًا على لفظه، وقُرئ: "وَأَكُونُ"[٢] بالرفع، أي: وأنا أكون، عِدَةً منه بالصلاح.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا﴾ أي: ولن يمهلها ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ أي: آخرُ عمرها، أو انتهى إن أريدَ بالأجل الزمان الممتدّ مِن أوّل العمر إلى آخره. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فمُجازٍ لكم عليه إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ، فسارعوا في الخيرات واستعدُّوا لِما هو آت. وقُرئ: "يَعْمَلُونَ"[٣] بـ"الياء" التحتانيّة.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المنافقين برئ مِن النِّفاق».[٤]

---

١ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٨٨/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٤.

٣ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٨٨/٢.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٤٠/٢٦ (المنافقون، ١/٦٣)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٠٢/٤ (المنافقون، ١/٦٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤١٢/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٦٣

سُورَةُ المُنَافِقُون

مدنية، إحدى عشْرةَ آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿إذا جاءَكَ المُنافِقُونَ قالُوا﴾ بألسنتهم على خِلاف ما في قُلوبهم: ﴿نَشهَدُ إنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ـ واللهُ يَعلَمُ إنَّكَ لَرَسُولُهُ ـ واللهُ يَشهَدُ﴾: يعلم ﴿إنَّ المُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ﴾ فيما أضمروه مُخالفًا لما قالوه، ٢ ـ ٣ ـ ﴿اتَّخَذُوا أيمانَهُم جُنَّةً﴾: سُترة عن أموالهم ودمائهم، ﴿فصَدُّوا﴾ بها ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: عن الجهاد فيهم. ﴿إنَّهُم ساءَ ما كانُوا يَعمَلُونَ! ذلِكَ﴾ أي: سُوءُ عملهم ﴿بِأنَّهُم آمَنُوا﴾ باللسان، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بالقلب، أي: استمرّوا على كُفرهم به، ﴿فطُبِعَ﴾: خُتم ﴿عَلَى قُلُوبِهِم﴾ بالكُفر، ﴿فهُم لا يَفقَهُونَ﴾ الإيمانَ.

٤ ـ ﴿وإذا رأيتَهُم تُعجِبُكَ أجسامُهُم﴾ لجمالها،..................................

سُورَةُ المُنَافِقُون

قولُهُ: (بِهَا) صدًّا، أو صدوداً؛ أي: منعاً، أو إعراضاً.

قولُهُ: (أي: عَنِ الجِهَادِ) أو عن دينِهِ.

قولُهُ: (أي: سُوءُ عَمَلِهِم) أي: ذلك القولُ الشَّاهدُ على سوءِ أعمالِهِم.

قولُهُ: (بالكُفرِ) حتَّى استحكَموا فيه.

قولُهُ: (الإِيمَانَ) أي: حقيقتَهُ وصحَّتَهُ.

قولُهُ: (لِجَمَالِهَا) وضخامَتِها.

﴿وإن يَقُولُوا تَسمَعْ لِقَولِهِم﴾ لفصاحته. ﴿كأنَّهُم﴾ من عِظمِ أجسامهم في ترك التفهّم ﴿خُشُبٌ﴾ - بسكون الشين وضمّها - ﴿مُسَنَّدةٌ﴾: مُمالة إلى الجِدار، ﴿يَحسِبُونَ كُلَّ صَيحةٍ﴾ تُصاحُ كنِداء في العسكر وإنشاد ضالّة ﴿علَيهِم﴾ لِما في قلوبهم من الرُّعب، أن ينزل فيهم ما يُبيح دماءهم. ﴿هُمُ العَدُوُّ. فاحذَرْهُم﴾ فإنهم يُفشون سِرّك للكُفّار. ﴿قاتَلَهُمُ اللهُ﴾: أهلكَهم. ﴿أنّى يُؤفَكُونَ﴾: كيف يُصرفون عن الإيمان بعد قيام البُرهان؟

٥ - ٦ - ﴿وإذا قِيلَ لَهُم: تعالَوا﴾ مُعتذِرِينَ، ﴿يَستَغفِرْ لَكُم رَسُولُ اللهِ. لَوَّوْا﴾، بالتشديد والتخفيف: عطفوا ﴿رُؤُوسَهُم، ورأيتَهُم يَصُدُّونَ﴾: يُعرِضُونَ عن ذلك، ﴿وهُم مُستكبِرُونَ. سَواءٌ علَيهِم أستَغفَرتَ لَهُم﴾ - استُغنِيَ بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل - ﴿أم لَم تَستَغفِرْ لَهُم. لَن يَغفِرَ اللهُ لَهُم. إنَّ اللهَ لا يَهدِي القَومَ الفاسِقِينَ﴾.

٧ - ٨ - ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ لِأصحابهم من الأنصار: ﴿لا تُنفِقُوا علَى مَن عِندَ رَسُولِ اللهِ﴾ من المُهاجرين ﴿حَتَّى يَنفَضُّوا﴾: يتفرّقوا عنه - ﴿ولِلهِ خَزائنُ السَّماواتِ والأرضِ﴾ بالرزق، ....

قولُهُ: (لِفَصَاحَتِهِ) وحلاوتِهِ.

قولُهُ: (في تَرْكِ التَّفهُّمِ) أي: في كونِهِم أشباحاً خاليةً عن العلمِ والنَّظرِ.

قولُهُ: (بِسُكُونِ الشِّينِ) قنبلٌ وبصريٌّ والكسائيُّ[١].

قولُهُ: (مُمَالَةٌ) لا هي مركَّبةٌ في البناءِ، ولا مغروسةٌ فينتفعُ بها.

قولُهُ: (أَهلَكَهُم) دعاءٌ عليهم، وهو طلبٌ من ذاتِهِ تعالى أن يلعنَهُم، أو تعليمٌ للمؤمنينَ أن يَدعوا عليهِم بذلك.

قولُهُ: (بالتَّخْفِيفِ) نافعٌ[٢].

قولُهُ: (عَطَفُوا) إعراضاً واستكباراً.

قولُهُ: (عَن ذَلِكَ) أي: الاستغفارِ، وهم مستكبِرونَ عن الاعتذارِ.

قولُهُ: (عَن هَمزَةِ الوَصلِ) بل حُذِفَت في الدَّرجِ كما هو شأنُها، لا لخصُوصِ همزَةِ الاستفهامِ.

قولُهُ: (مِنَ المُهَاجِرِينَ) أي: فقرائِهِم.

قولُهُ: (بالرِّزقِ) أي: بيدِهِ الأرزاقُ والقسمُ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١١).

(٢) انظر المصدر السابق.

فهو الرازق للمُهاجرين وغيرهم، ﴿ولكنَّ المُنافِقِينَ لا يَفقهُونَ ـ يَقُولُونَ: لَئِنْ رَجَعْنا﴾ أي: من غزوة بني المُصطلِق، ﴿إلَى المَدِينةِ لَيُخرِجَنَّ الأعَزُّ﴾: عنَوا به أنفُسَهم ﴿مِنها الأذَلَّ﴾: عنَوا به المُؤمنين. ﴿ولِلهِ العِزَّةُ﴾: الغلبةُ ﴿ولِرَسُولِهِ ولِلمُؤمِنِينَ، ولكِنَّ المُنافِقِينَ لا يَعلَمُونَ﴾ ذلك.

٩ ـ ١٠ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، لا تُلْهِكُم﴾: تَشغَلْكم ﴿أموالُكُم ولا أولادُكُم عَن ذِكرِ اللهِ﴾: الصلوات الخمس ـ ﴿ومَن يَفعَلْ ذلِكَ فأُولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ ـ وأنفِقُوا﴾ في الزكاة ﴿مِمّا رَزَقْناكُم مِن قَبلِ أن يأتِيَ أحَدَكُمُ المَوتُ، فيَقُولَ: رَبِّ، لَولا﴾ ـ بمعنى: هلاّ، أو لا: زائدة ولو: للتمنّي ـ ﴿أخَّرتَنِي إلَى أجَلٍ قَرِيبٍ فأصَّدَّقَ﴾، بإدغام التاء في الأصل في الصاد: أتَصدّق بالزكاة، ﴿وأكُنْ مِّنَ الصّالِحِينَ﴾، بأن أحُجّ. قال ابن عبّاس: ما قصّر أحد في الزكاة والحجّ إلاّ سأل الرجعةَ عِند الموت.

١١ ـ ﴿ولَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفسًا إذا جاءَ أجَلُها، واللهُ خَبِيرٌ بِما تَعمَلُونَ﴾، بالتاء والياء.

قولُهُ: (أي: مِنْ غَزْوَةِ بَنِي المُصْطَلِقِ) قصَّتُها مذكورةٌ في الكتبِ المبسوطَةِ.

قولُهُ: (أَنْفُسَهُم) أو خسيسَهُم.

قولُهُ: (المُؤْمِنِينَ) أو رئيسَهُم.

قولُهُ: (الغَلَبَةُ) والقوَّةُ، ولمن أعزَّهُ.

قولُهُ: (ذلِكَ) مِن فرطِ جهلِهِم، وغايةِ غرورِهِم.

قولُهُ: (الصَّلوَاتِ) أي: تدبيرِها والاهتمامِ بها عن ذكرِهِ؛ كالصَّلواتِ وسائرِ العباداتِ المذكِّرة للمعبودِ، والمرادُ: نهيُهم عن اللَّهوِ بها، وتوجيهُ النَّهي إليها للمُبالغةِ، فإنَّها غالباً تُلهي.

قولُهُ: (في الزَّكَاةِ) أي: بعضَ أموالِكُم ادِّخاراً للآخرةِ.

قولُهُ: (هَلَّا) وهو تحضيضٌ، أو عرضٌ، أو تقديمٌ.

قولُهُ تعالى: (وأَكُونَ) بالنَّصبِ بصريٌّ[1] عطفاً على: ﴿أَصَّدَّقَ﴾، والجمهورُ على جزمِ: ﴿أَكُنْ﴾ للعطفِ على موضعِ الفاءِ وما بعدَها، ويُسَمَّى العطفَ على المعنى.

قولُهُ: (واليَاءِ) شعبةُ[2]؛ ليوافقَ ما قبلَهُ في الغيبةِ، واللهُ سبحانَهُ وتعالى أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١١).

(٢) انظر المصدر السابق.

سُورَةُ المنَافِقُونَ

مدنيَّةٌ، وعدد آياتها إحدى عشرةَ آيةً بلا خلاف.

ووجهُ اتصالها أنَّ سورةَ الجمعة ذُكِرَ فيها المؤمنون، وهذه ذُكر فيها أضدادهم، وهم المنافقون، ولهذا أخرج سعيد بن منصور والطبرانيُّ في «الأوسط» بسندٍ حَسَنٍ عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقرأُ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة، فيُحرِّضُ بها المؤمنين، وفي الثانية بسورة المنافقين، فيُقرِّعُ بها المنافقين[1].

وقال أبو حيان في ذلك: إنه لَمَّا كان سببُ الانفضاض عن سماع الخطبة ربَّما كان حاصلاً عن المنافقين، واتَّبعهم ناسٌ كثيرٌ من المؤمنين في ذلك؛ لسرورهم بالعِير التي قَدِمَتْ بالمِيْرة؛ إذ كان الوقتُ وقتَ مجاعةٍ، جاء ذِكْرُ المنافقين وما هم عليه من كراهة أهل الإيمان، وأتبع بقبائح أفعالهم وأقوالهم[2]. والأولُ أولى.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ أي: حضروا مجلسكَ، والمرادُ بهم عبد الله بن أُبَيٍّ وأصحابه ﴿قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ التأكيدُ بـ «إنَّ» واللام لِلَازِم فائدة الخبر، وهو عِلْمُهم بهذا الخبر المشهود به، فيفيد تأكيدَ الشهادة، ويدلُّ على ادِّعائهم فيها المواطأةَ، وإن كانت في نفسها تقعُ على الحقِّ والزور.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٢٢، والطبراني في الأوسط (٩٢٧٥).
وجاء في مطبوع الطبراني، وكذا في مجمع الزوائد ٢/ ١٩١: فيُفزِعُ. بدل: فيُقرِّع.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٧١.

والتأكيد في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ لمزيد الاعتناء حقيقةً بشأن الخبر، أو: ليس إلا ليوافقَ صنيعَهم، وجِيءَ بالجملة اعتراضاً لإماطة ما عسى أن يُتوهَّمَ من قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ من رجوع التكذيب إلى نفس الخبر المشهود به من أول الأمر، وذكر الطِّيبيُّ أنَّ هذا نوعٌ من التتميم لطيفُ المسلك، ونظيره قول أبي الطيب:

وتحتقرُ الدنيا احتقارَ مُجرِّبٍ ترى كلَّ ما فيها وحاشاكَ فانياً[(١)]

فالتكذيبُ راجعٌ إلى «نشهد» باعتبار الخبر الضِّمني الذي دلَّ عليه التأكيدُ، وهو دعوى المواطأة في الشهادة، أي: والله يشهدُ إنهم لكاذبون فيما ضمَّنوه قولهم: «نشهد» من دعوى المواطأة وتَوَافُقِ اللسان والقلب في هذه الشهادة.

وقد يقال: الشهادةُ خبرٌ خاصٌّ، وهو ما وافقَ فيه اللسانُ القلبَ، وأما شهادةُ الزور فتجوز كإطلاق البيع على غير الصحيح، فهم كاذبون في قولهم: «نشهد» المتفرِّعِ على تسمية قولهم ذلك شهادة، وهو مرادُ من قال: أي: لكاذبون في تسميتهم ذلك شهادةً، فلا تغفل.

وعلى هذا لا يحتاجُ في تحقُّق كَذِبهم إلى ادِّعائهم المواطأةَ ضِمْناً؛ لأنَّ اللفظَ موضوعٌ للمواطِئ، وجُوِّز أن يكونَ التكذيبُ راجعاً إلى قولهم: «إنك لرسول الله» باعتبار لازم فائدة الخبر، وهو بمعنى رجوعه إلى الخبر الضمني، وأن يكون راجعاً إليه باعتبار ما عندهم، أي: لكاذبون في قولهم: «إنك لرسول الله» عند أنفسهم؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنه كَذِبٌ وخبرٌ على خلاف ما عليه حالُ المخبَر عنه، قيل: وعلى هذا، الكذبُ هو الشرعيُّ اللاحقُ به الذَّمُّ، ألا ترى أنَّ المجتهدين لا يُنسَبونَ إلى الكذب، وإن نُسِبوا إلى الخطأ.

وجوَّزَ العلامة الثاني أن يكون التكذيبُ راجعاً إلى حلف المنافقين، وزَعْمِهم[(٢)] أنهم لم يقولوا: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، و: لئن

---

(١) ديوان المتنبي ٤/ ٤٢٧.
(٢) في (م): وزعموا.

رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل؛ لما ذُكِرَ في «صحيح البخاري»[١] عن زيد بن أرقم أنه قال: كنت في غزاةٍ مع رسول الله ﷺ فسمعتُ عبدَ الله بن أبيٍّ بن سلول يقول: لا تُنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضُّوا من حوله، ولو رَجَعنا من عنده ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. فذكرتُ ذلك لعمِّي، فذكره لنبيِّ الله ﷺ، فدعاني فحدَّثته، فأرسل رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى عبد الله بن أبيّ وأصحابه، فحلفوا أنهم ما قالوا. فكذَّبني رسولُ الله ﷺ وصَدَّقه، فأصابني هَمٌّ لم يُصبني مثلُهُ قَطّ، فجلستُ في البيت، فقال لي عمِّي: ما أردتَ إلى أنْ كذَّبك رسول الله ﷺ ومَقَتك. فأنزل الله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فبعث إليَّ النبيُّ ﷺ، فقرأ فقال: «إنَّ الله صَدَّقك يا زيد».

وجوَّزَ بعضُ الأفاضل أن يكونَ المعنى: إنَّ المنافقينَ شأنُهم الكذب، وإن صَدَقوا في هذا الخبر. وأيًّا ما كان فلا يتمُّ للنَّظَّام الاستدلالُ بالآية على أنَّ صِدْق الخبر مطابقتُهُ لاعتقاد المخبِر، ولو كان ذلك الاعتقادُ خطأً، وكَذِبَهُ عدمُها.

وإظهارُ المنافقين في موقع الإضمار لِذَمِّهم، والإشعار بعلَّة الحكم، والكلامُ في «إذا» على نحو ما مرَّ آنفاً.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ أي: الكاذبة على ما يشير إليه الإضافة ﴿جُنَّةً﴾ أي: وقايةً عمَّا يتوجَّه إليهم من المؤاخذة بالقتل أو السبي أو غير ذلك. قال قتادة: كلَّما ظهرَ على شيءٍ منهم يُوجب مؤاخذتهم، حَلَفوا كاذبينَ عِصْمةً لأموالهم ودمائهم، وهذا كلامٌ مستقلٌّ تعداداً لقبائحهم، وأنهم من عادتهم الاستجنان بالأيمان الكاذبة، كما استَجَنُّوا بالشهادة الكاذبة. ويجوزُ أن يُرادَ بأيمانهم شهادتهم السابقة؛ والشهادةُ وأفعالُ العلم واليقين أَجْرَتْها العربُ مجرى القَسَم؛ وتلقَّتها بما يُتَلقَّى القَسَمُ، ويؤكَّدُ بها الكلامُ كما يُؤكَّدُ به، فلهذا يُطلَقُ عليها اليمين، وبهذا استشهد أبو حنيفة على أنَّ: أشهد، يمين. واعترضه ابن المنير[٢] بأنَّ غايةَ ما في الآية أنه سُمِّي يميناً، والكلامُ في وجوب الكفارة بذلك، لا في إطلاق الاسم، وليس كلُّ ما يُسَمَّى يميناً

(١) برقم (٤٩٠٠) و(٤٩٠١) و(٤٩٠٤)، وهو عند أحمد (١٩٣٣٣).
(٢) الإنصاف ٤/١٠٨.

تجبُ فيه الكفارة، فلو قال: أحلفُ على كذا. لا تجبُ عليه الكفارة، وإن كان حلفاً. والجمعُ باعتبار تعدُّد القائلين، والكلامُ على هذا استئنافٌ يدلُّ على فائدة قولهم ذلك عندهم، مع الذَّمِّ البالغ بما عقبه.

وقيل: إنَّ «اتخذوا» جواب «إذا»، وجملة «قالوا» السابقة في موضع الحال بتقدير «قد» أو بدونه. وهو خلافُ الظاهر، وأبعدُ منه جَعْلُ الجملة حالاً، وتقديرُ جوابٍ لـ «إذا».

وقال الضحاك: أي: اتَّخذوا حَلِفَهم بالله إنهم لمنكم جُنَّةً عن القتل أو السبي، أو نحوهما مما يُعامَلُ به الكفار. ومن هنا أخذ الشاعر قوله:

وما انتسبوا إلى الإسلام إلا لِصَوْنِ دمائهم أن لا تُسالا[١]

وعن السُّدِّي أنهم اتخذوا ذلك جُنَّةً من تَرْكِ الصلاة عليهم إذا ماتوا، وهو كما ترى وكذا ما قبله.

﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: مَنْ أراد الدخولَ في دين الإسلام؛ أو مَنْ أراد فِعْلَ طاعةٍ مطلقاً، على أنَّ الفعلَ متعدٍّ والمفعولَ محذوفٌ، أو: أعرضوا عن الإسلام حقيقةً، على أنَّ الفعلَ لازمٌ، وأيًّا ما كان فالمراد ـ على ما قيل ـ استمرارُهم على ذلك.

وحَمَلَ بعضُ الأجلَّة الأيمانَ على ما يعمُّ ما حكي عنهم من الشهادة، ثم قال: واتخاذها جُنَّةً عبارةٌ عن إعدادهم وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها، ويتخلَّصوا عن المؤاخذة، لا عن استعمالها بالفعل، فإنَّ ذلك متأخِّرٌ عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية، واتخاذُ الجُنَّةِ لا بدَّ أن يكونَ قبل المؤاخذة، وعن سببها[٢] أيضاً كما يُفصِحُ عنه الفاء في «فصدُّوا» أي: مَنْ أرادَ الإسلامَ، أو الإنفاقَ كما سيُحكى عنهم، ولا ريب في أنَّ هذا الصَّدَّ متقدِّمٌ على حَلِفهم. وقرئ ـ أي: قرأ الحسن ـ: «إيمانهم» بكسر الهمزة[٣]، أي: الذي أظهروه على ألسنتهم،

(١) البيت في البحر المحيط ٨/ ٢٧١ دون نسبة.
(٢) أي: ومتأخر عن سببها.
(٣) القراءات الشاذة ص١٥٧، والمحتسب ٢/ ٣٢٢، والكلام من تفسير أبي السعود ٨/ ٢٥٢.

فاتخاذُهُ جُنَّةً عبارةٌ عن استعماله بالفعل، فإنه وقايةٌ دون دمائهم وأموالهم، فمعنى قوله تعالى: «فصدوا»: فاستمرُّوا على ما كانوا عليه من الصُّدود والإعراض عن سبيله تعالى. انتهى، وفيه ما يُعرَفُ بالتأمُّلِ، فتأمل.

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢﴾ من النفاق وما يتبعه، وقد مرَّ الكلام في «ساء» غيرَ مرَّةٍ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ من القول الناعي عليهم أنهم أسوأُ الناس أعمالاً، أو إلى ما ذُكِرَ من حالهم في النفاق والكذب والاستجنان بالأيمان الفاجرة، أو الإيمان الصُّوري، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه؛ لما مرَّ مراراً من الإشعار في مثل هذا المقام ببعد منزلته في الشَّرِّ، وجوَّزَ ابن عطية كونه إشارة إلى سوء ما عملوا، فالمعنى: ساء عملهم[1] ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿ءَامَنُوا۟﴾ أي: نطقوا بكلمة الشهادة كسائر مَنْ يدخل في الإسلام ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ ظهر كُفْرهم وتبيَّنَ بما اطَّلع عليه من قولهم: إن كان ما يقوله محمدٌ حقًّا فنحن حمير، وقولهم في غزوة تبوك: أيطمعُ هذا الرجل أن تُفتَحَ له قصورُ كسرى وقيصر، هيهات. وغير ذلك. و«ثم» على ظاهرها، أو لاستبعاد ما بين الحالين. أو: ثم أسرُّوا الكفرَ، فـ «ثم» للاستبعاد لا غير. أو: نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاءً بالإسلام. وقيل: الآيةُ في أهل الردة منهم.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حتى يموتوا على الكفر ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾ حقيقة الإيمان أصلاً.

وقرأ زيد بن علي «فَطَبع» بالبناء للفاعل[2]، وهو ضميره تعالى، وجُوِّزَ أن يكون ضميراً يعودُ على المصدر المفهوم مما قبل، أي: فَطَبع هو، أي: تلعابُهم بالدين.

وفي روايةٍ أنه قرأ: «فَطَبع الله» مصرِّحاً بالاسم الجليل، وكذا قرأ الأعمش[3].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٢.

(٢) الكشاف ٤/ ١٠٩، والبحر ٨/ ٢٧١.

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٦، والمحرر ٥/ ٣١٢، والبحر ٨/ ٢٧٢.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لصَباحَتِها وتَناسُبِ أعضائها ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لفصاحتهم، وذلاقة ألسنتهم، وحلاوة كلامهم، وكان ابن أبيٍّ جسيماً فصيحاً يحضُر مجلس رسول الله ﷺ في نفرٍ من أمثاله كالجَدِّ بن قيس، ومُعتِّب بن قُشير، فكان عليه الصلاة والسلام ومن معه يَعجبون من هياكلهم، ويسمعون لكلامهم.

والخطابُ قيل: لكلِّ مَنْ يصلحُ له، وأُيِّدَ بقراءة عكرمة وعطية العوفي: «يُسْمَعْ» بالياء التحتية والبناء للمفعول[1]. وقيل: لسيِّد المخاطَبين عليه الصلاة والسلام، وهذا أبلغُ على ما في «الكشف» لأنَّ أجسامهم إذا أعجبته ﷺ فأولى أن تُعجِبَ غيره؛ وكذا السماعُ لقولهم، وليوافق قوله تعالى: «إذا جاءك».

والسماعُ مُضمَّنٌ معنى الإصغاء، فليستِ اللامُ زائدةً.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ كلامٌ مستأنفٌ لذمِّهم، لا محلَّ له من الإعراب؛ وجُوِّزَ أن يكون في حَيِّز الرفع، على أنه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هم كأنهم.. إلخ؛ والكلامُ مستأنفٌ أيضاً. وأنت تعلم أنَّ الكلامَ صالحٌ للاستئناف من غير تقدير، فلا حاجةَ إليه.

وقيل: هو في حَيِّز النَّصْبِ على الحال من الضمير المجرور في «لقولهم»، أي: تسمع لما يقولونَ مُشبَّهين بخُشُبٍ مُسنَّدةٍ كما في قوله:

فقلت عسى أن تُبصريني كأنما بَنِيَّ حوالَيَّ الأُسُودُ الحَوارِدُ[2]

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٢، والبحر ٨/ ٢٧٢.
وجاء في مطبوع القراءات الشاذة ص١٥٧: «تسمع» من غير تقييد.

(٢) في الأصل: الخوادر، وفي (م): الحوادر. وكلاهما غلط. والمثبت من دلائل الإعجاز ص٢١١، ومعاهد التنصيص ١/ ٣٠٤.
والبيت للفرزدق وهو في ديوانه ص١٤٦ وفيه: اللوابد، بدل: الحوارد. قال الشيخ محمود محمد شاكر في تعليقه على الدلائل: وهي - أي: رواية الديوان - أصح الروايتين وأولاها بهذا الشعر، ورواية أكثر كتب البلاغة كما هنا (يعني الدلائل)، والحوارد: الغضاب، واللوابد: جمع لابد، وهو الأسد.

وتُعقِّبَ بأنَّ الحاليةَ تفيدُ أنَّ السماعَ لقولهم لأنهم كالخُشُبِ المسنَّدة. وليس كذلك.

و«خُشُب» جمعُ خَشَبة كَثَمرةٍ وثُمُر، والمراد به ما هو المعروفُ، شُبِّهوا في جلوسهم [في][1] مجالس رسول الله ﷺ مستندين فيها، وما هم إلا أجرامٌ خاليةٌ عن الإيمان والخير، بخُشُبٍ منصوبةٍ مُسنَّدةٍ إلى الحائط في كونهم أشباحاً خاليةً عن الفائدة؛ لأنَّ الخُشُبَ تكونُ مُسنَّدةً إذا لم تكن في بناءٍ أو دعامة بشيءٍ آخر.

وجُوِّزَ أن يُرادَ بالخُشُبِ المسنَّدةِ الأصنامُ المنحوتةُ من الخُشُبِ المسنَّدة إلى الحيطان، شُبِّهوا بها في حُسْنِ صُوَرهم وقِلَّة جَدْواهم، وفي مثلهم قال الشاعر:

لا يَخْدَعَنْكَ اللِّحى ولا الصّورُ تسعةُ أعشارِ مَن تَرَى بقرُ
تراهمُ كالسَّحاب منتشراً وليس فيها لطالبٍ مطرُ
وفي شجر السّرو منهمُ شَبَهٌ له رَواءٌ وما له ثمرُ[2]

وقرأ البراء بن عازب، والنحويان، وابن كثير: «خُشْبٌ» بإسكان الشين[3]، تخفيف «خُشُب» المضموم، ونظيره: بَدَنة وبُدْن. وقيل: جمع خشباء، كحُمْرٍ وحَمْراء، وهي الخشبةُ التي نُخِرَ جوفُها، شُبِّهوا بها في فساد بواطنهم لنفاقهم. وعن اليزيديِّ حَمْلُ قراءة الجمهور بالضَّمِّ على ذلك، وتُعقِّبَ بأنَّ: فعلاء، لا يُجمَعُ على: فُعُلٍ، بضمَّتين، ومنه يُعلَمُ ضَعْفُ القيل؛ إذ الأصلُ تَوَافُقُ القراءات.

وقرأ ابن عباس وابن المسيب وابن جبير: «خَشَبٌ» بفتحتين، كَمَدَرةٍ ومَدَر، وهو اسمُ جنسٍ على ما في «البحر»[4]، وَوَصْفُهُ بالمؤنَّثِ كما في قوله تعالى: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧].

﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي: واقعة عليهم ضارَّة لهم؛ لجُبْنهم وهَلَعهم،

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٨/ ٢٥٢، والكلام منه.
(٢) الأبيات لابن لنكك محمد بن محمد البصري، وهي في يتيمة الدهر ٢/ ٤١٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٧٢.
(٣) التيسير ص٢١١، والنشر ٢/ ٢١٦، والبحر ٨/ ٢٧٢.
(٤) ٨/ ٢٧٢، وينظر الكشاف ٤/ ١٠٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٣١٢.

فكانوا كما قال مقاتل: متى سمعوا بِنِشْدان ضالَّةٍ، أو صياحاً بأيٍّ وجهٍ كان، طارت عقولهم، وظنُّوا ذلك إيقاعاً بهم، وقيل: كانوا على وَجَلٍ من أن يُنزلَ الله عزَّ وجلَّ فيهم ما يَهتِكُ أستارهم، ويُبيح دماءهم وأموالهم؛ ومنه أخذ جريرٌ قوله يُخاطِبُ الأخطل:

ما زلتَ تحسبُ كلَّ شيءٍ بعدهم خيلاً تكرُّ عليهم ورجالا[1]

وكذا المتنبي قوله:

وضاقتِ الأرضُ حتى ظنَّ هاربهم إذا رأى غيرَ شيءٍ ظَنَّهُ رَجُلا[2]

والوقف على «عليهم» الواقع مفعولاً ثانياً لـ «يحسبون»، وهو وقفٌ تامٌّ كما في الكواشي، وعليه كلام الواحديّ.

وقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ استئنافٌ، أي: هم الكاملون في العداوة، والراسخون فيها، فإنَّ أعدى الأعادي العدوُّ المداجي، الذي يكاشرك[3] وتحت ضلوعه الداءُ الدويُّ، ككثيرٍ من أبناء الزمان ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾ لكونهم أعدى الأعادي، ولا تغترَّنَّ بظاهرهم.

وجوَّزَ الزمخشريُّ كونَ «عليهم» صلة «صيحة»، و«هم العدو» المفعول الثاني لـ «يحسبون» كما لو طرح الضمير، على معنى أنهم يحسبون الصيحةَ نفسَ العَدُوِّ[4]. وكان الظاهر عليه: هو أو هي العدوّ، لكنه أتى بضمير العقلاء المجموع لمراعاة معنى الخبر، أعني: العدوّ، بناءً على أنه يكون جمعاً ومفرداً، وهو هنا جمعٌ. وفيه أنه تخريجٌ متكلَّفٌ بعيدٌ جدًّا لا حاجة إليه، وإن كان المعنى عليه لا يخلو عن بلاغةٍ ولطف، ومع ذلك لا يساعد عليه ترتُّبُ «فاحذرهم»؛ لأنَّ التحذيرَ منهم يقتضي وَصْفَهم بالعداوة لا بالجبن.

---

(١) ديوان جرير ١/٥٣.

(٢) البيت في ديوانه ٣/٢٨٧.

(٣) الكَشْر: في الأسنان يكون في الضحك وغيره. القاموس المحيط (كشر).

(٤) الكشاف ٤/١٠٩.

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: لَعنَهم وطردهم، فإنَّ القتلَ قُصارى شدائد الدنيا وفظائعها، وكذلك الطردُ عن رحمة الله تعالى والبعدُ عن جنابه الأقدس منتهى عذابه عزَّ وجلَّ، وغاية نكاله جلَّ وعلا في الدنيا والآخرة. والكلامُ دعاءٌ وطَلَبٌ من ذاته سبحانه أن يلعنهم ويطردهم من رحمته تعالى، وهو من أسلوب التجريد، فلا يكون من إقامة الظاهر مقام الضمير؛ لأنه يفوتُ به نضارةُ الكلام، أو تعليمٌ للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك، فهو على معنى: قولوا: قاتلهم الله.

وجُوِّز أن لا يكونوا من الطلب في شيءٍ، بأن يكونَ المرادُ أنَّ وقوعَ اللَّعْنِ بهم مقرَّرٌ لا بدَّ منه. وذكر بعضُهم أنَّ «قاتله الله» كلمةُ ذَمٍّ وتوبيخ، وتستعملها العربُ في موضع التعجُّب من غير قَصْدٍ إلى لعن، والمشهورُ تعقيبها بالتعجُّب نحو: قاتله الله ما أشعره، وكذا قوله سبحانه هنا: «قاتلهم الله».

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾ وهذا تعجيبٌ من حالهم، أي: كيف يُصرَفون عن الحقِّ إلى ما هم عليه من الكفر والضلال؟! فـ «أنَّى» ظرفٌ متضمِّنٌ للاستفهام، معمولٌ لما بعده، وجوَّز ابنُ عطيةَ كونه ظرفاً لـ «قاتلهم» وليس هناك استفهام[١]. وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ «أنَّى» لا تكونُ لمجرَّدِ الظرفية أصلاً، فالقول بذلك باطل[٢].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: عَطَفوها، وهو كنايةٌ عن التكبُّر والإعراض على ما قيل؛ وقيل: هو على حقيقته، أي: حرَّكوها استهزاءً، وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج[٣].

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يُعرضون عن القائل، أو عن الاستغفار ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ عن ذلك.

روي أنه لما صدَّق الله تعالى زيدَ بن أرقم فيما أخبر به عن ابن أبيّ، مَقَتَ الناسُ ابنَ أبيٍّ، ولامه المؤمنون من قومه، وقال بعضُهم له: امضِ إلى رسول الله ﷺ

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٣.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٧٣.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٢٤.

واعترف بذنبك، يستغفر لك. فلوَّى رأسه إنكاراً لهذا الرأي، وقال لهم: لقد أشرتم عليَّ بالإيمان فآمنت، وأشرتم عليَّ بأن أعطي زكاةَ مالي ففعلت، ولم يبقَ لكم إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد ﷺ[١].

وفي حديثٍ أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن جبير أنَّ رسول الله ﷺ قال له: «تب»، فجعل يلوي رأسه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إلخ[٢].

وفي حديثٍ أخرجه الإمام أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وغيرهم عن زيد، بعد نقل القصة إلى أن قال: حتى أنزل الله تعالى تصديقي في: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ ما نصُّه: فدعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم، فَلَوَّوْا رؤوسهم[٣].

فَجَمْعُ الضمائر: إما على ظاهره، وإما من باب: بنو تميمٍ قتلوا فلاناً، و«إذا» على ما مرَّ، و«يستغفر» مجزومٌ في جواب الأمر، و«رسول الله» فاعلٌ له، والكلام ـ على ما في «البحر»[٤] ـ من باب الإعمال؛ لأنَّ «رسول الله» يطلبه عاملان: «يستغفر» و«تعالوا»، فأُعمل الثاني على المختار عند أهل البصرة، ولو أُعمل الأولُ لكان التركيبُ: تعالوا يستغفرْ لكم إلى رسول الله.

وجملة «يصدُّون» في موضع الحال، وأتت بالمضارع ليدلَّ على الاستمرار التجدُّدي، ومثلها في الحالية جملةُ: «هم مستكبرون».

وقرأ مجاهدٌ ونافعٌ وأهلُ المدينة، وأبو حيوة وابن أبي عبلة والمفضل، وأبان عن عاصم، والحسن ويعقوب بخلافٍ عنهما: «لَوَوْا» بتخفيف الواو[٥]، والتشديدُ في قراءة باقي السبعة للتكثير.

---

(١) عزاه ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٧٢ للثعلبي.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٢٤.

(٣) أحمد (١٩٣٣٤)، والبخاري (٤٩٠٣)، ومسلم (٢٧٧٢)، والترمذي (٣٣١٤)، والنسائي في الكبرى (١١٥٣٤).

(٤) ٨/ ٢٧٣.

(٥) التيسير ص٢١١، والنشر ٢/ ٣٨٨ عن نافع وروح (راوية يعقوب)، والكلام من البحر ٨/ ٢٧٣.

ولمَّا نعى سبحانه عليهم إياءهم عن الإتيان ليستغفر لهم رسول الله ﷺ وإعراضَهم واستكبارَهم، أشارَ عزَّ وجلَّ إلى عدم فائدة الاستغفار لهم ـ لِمَا عَلِمَ سبحانه من سوء استعدادهم واختيارهم ـ بقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ فهو للتسوية بين الأمرين؛ الاستغفار لهم وعدمه، والمراد الإخبارُ بعدم الفائدة كما يُفصِحُ عنه قوله جلَّ شأنه: ﴿لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ وتعليلُهُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٦﴾ أي: الكاملين في الفسق، الخارجين عن دائرة الاستصلاح، المنهمكين لسوء استعدادهم بأنواع القبائح، فإنَّ المغفرةَ فرعُ الهداية. والمراد بهؤلاء القوم إما المحدَّثُ عنهم بأعيانهم، والإظهارُ في مقام الإضمار لبيان غُلُوِّهم في الفسق؛ والإشارة إلى عِلَّة الحكم، أو الجنس، وهم داخلون دخولاً أوَّليًّا.

والآيةُ في ابن أُبيٍّ كسوابقها كما سمعت، ولواحقها كما صحَّ وستسمعه قريباً إن شاء الله تعالى، والاستغفار لهم قيل: على تقدير مجيئهم تائبين معتذرين من جناياتهم، وكأن ذلك قد اعتُبر في جانب الأمر الذي جُزِمَ في جوابه الفعلُ، وإلا فمجرَّدُ الإتيان لا يَظْهَرُ كونُه سبباً للاستغفار، ويُومئُ إليه قوله ﷺ في خبر ابن جبير لابن أُبيٍّ: «تب». وترك الاستغفار على تقدير الإصرار على القبائح والاستكبار وتَرْكِ الاعتذار، وحيث لم يكن منهم توبةٌ لم يكن منه عليه الصلاة والسلام استغفارٌ لهم.

وحكى مكّي أنه ﷺ استغفرَ لهم لأنهم أظهروا له الإسلام، أي: بعد ما صَدَرَ منهم ما صَدَرَ بالتوبة.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: لما نزلت آيةُ «براءة»: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ﴾ [التوبة: ٨٠] إلخ، قال النبيُّ ﷺ: «أسمعُ ربِّي قد رخَّصَ لي فيهم، فواللهِ لأستغفرنَّ لهم أكثرَ من سبعين مرة، لعلَّ الله أن يغفر لهم» فنزلت هذه الآية: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ﴾ إلخ[1].

---

(١) تفسير الطبري ١١/٦٠١.

وأخرج أيضاً عن عروةَ نحوه[1]، وإذا صحَّ هذا لم يتأتَّ القولُ بأنَّ «براءةَ» بأسرها آخرُ ما نزل، ولا ضرورةَ تدعو لالتزامه إلا إن صحَّ نقلٌ غيرُ قابلٍ للتأويل. ولعلَّ هذه الآيةَ إشارةٌ منه تعالى لنبيِّه ﷺ إلى أنَّ المراد بالعدد هناك التكثير دون التحديد؛ ليكونَ حكمُ الزائد مخالفاً لحكم المذكور، فيكون المراد بالآيتين عند الله تعالى واحداً، وهو عدمُ المغفرة لهم مطلقاً. والآيةُ الأولى ـ فيما أختار ـ نزلتْ في اللَّامِزين كما سمعتَ هناك عن ابن عباس[2]، وهو الأوفقُ بالسباق، وهذه نزلتْ في ابن أُبيٍّ وأصحابه كما نطقت به الأخبار الصحيحة، ويجمعُ الطائفتين النفاق، ولذا قال ﷺ ما قال مع اختلاف أعيان الذين نزلتا فيهم.

ثم إني لم أقف في شيءٍ مما أعوِّلُ عليه على أنَّ ابنَ أُبيٍّ كان مريضاً إذ ذاك، ورأيتُ في خبرٍ أخرجه عبد بن حميد عن ابن سيرين ما يُشعر بأنه بعد قوله: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، بأيامٍ قلائلَ اشتكى واشتدَّ وَجَعُهُ، وفيه أنه قال للنبيِّ ﷺ وقد ذَهَبَ إليه بشفاعةِ ولده: حاجتي إذا أنا مِتُّ أن تشهد غسلي وتكفيني في ثلاثة أثوابٍ من أثوابك، وتمشي مع جنازتي، وتُصلِّي عليَّ. ففعل ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[3] [التوبة: ٨٤].

ولا يُشْكِلُ الاستغفارُ إن كان قد وقع لأحدٍ من المنافقين بعد نزول ما يفيد كونه تعالى لا يهدي القومَ الفاسقين؛ إذ لا يتعيَّنُ اندراجُ كلٍّ منهم إلا بتبيُّن أنه بخصوصه من أصحاب الجحيم، كأنْ يموتَ على ما هو عليه من الكفر والنفاق.

وهذا الذي ذكرتُهُ هنا هو الذي ظهر لي بعد كتابة ما كتبتُ في آية «براءة»، والمقامُ بعدُ محتاجٌ إلى تحقيقٍ، فراجعْ وتأملْ، والله تعالى وليُّ التوفيق.

وقرأ أبو جعفر: «آستغفرتَ» بمدَّةٍ على الهمزة[4]، فقيل: هي عِوَضٌ من همزة

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ٥٩٩.

(٢) ينظر ما سلف ١٠/ ٤٤١.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٢٦.

(٤) النشر ٢/ ٣٨٨.

الوصل، وهي مثلُ المدَّة في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ [الأنعام: ١٤٣] لكنَّ هذه المدَّةَ في الاسم لئلّا يلتبس الاستفهام بالخبر، ولا يحتاجُ ذلك في الفعل؛ لأنَّ همزةَ الوصل فيه مكسورةٌ.

وعنه أيضاً ضَمُّ ميم: «عليهم» - إذ أصلها الضَّمُّ - وَوَصْلُ الهمزة[(١)].

وروى معاذُ بن معاذ العنبري عن أبي عمرو كسر الميم على أصل التقاء الساكنين، ووصل الهمزة[(٢)]، فتسقطُ في القراءتين، واللفظُ خبرٌ والمعنى على الاستفهام، وجاء حَذْفُ الهمزة ثقةً بدلالة «أم» عليها كما في قوله:

بسبعٍ رَمَينَ الجمرَ أم بثمانِ[(٣)]

وقال الزمخشريُّ: قرأ أبو جعفر: «آستغفرتَ» إشباعاً لهمزة الاستفهام؛ للإظهار والبيان، لا قَلْباً لهمزة الوصل أَلِفاً كما في «آلسحر» [يونس: ٨١] و«آلله» [يونس: ٥٩][(٤)].

وقال [ابن عطية: وقرأ][(٥)] أبو جعفر بن القعقاع بمدَّةٍ على الهمزة، وهي ألفُ التسويةِ، وقرأ أيضاً بوَصْل الألف دون همزةٍ على الخبر، وفي كلٍّ ذلك ضَعْفٌ؛ لأنه في الأولى أثبتَ همزةَ الوصل وقد أغنتْ عنها همزةُ الاستفهام، وفي الثانية حَذَفَ همزةَ الاستفهام وهو يريدها، وهذا مما لا يستعمل إلا في الشعر.

وقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لبعض ما يدلُّ على فِسْقهم، وجُوِّزَ أن يكونَ جارياً مجرى التعليل لعدم مغفرته تعالى لهم. وليس بشيءٍ؛ لأنَّ ذاك مُعلَّلٌ بما قبل.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٧٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) عجز بيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في ديوانه ص٢٦٦، وصدره: فوالله ما أدري وإني لحاسبٌ. وسلف ١٦/ ١٦٧.

(٤) الكشاف ٤/ ١١١.

(٥) ما بين حاصرتين من البحر ٨/ ٣٧٣، وعنه نقل المصنف، وكلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣١٤.

والقائلُ رأسُ المنافقين ابنُ أبيٍّ، وسائرهم راضُون بذلك، أخرج الترمذيُّ[1] وصححه، وجماعةٌ عن زيد بن أرقم قال: غزونا مع رسول الله ﷺ، وكان معنا ناسٌ من الأعراب، فكنا نبتدرُ الماءَ، وكان الأعرابُ يسبقونا إليه، فيسبقُ الأعرابيُّ أصحابه فيملأ الحوض، ويجعلُ حوله[2] حجارة، ويجعلُ النِّطْعَ عليه حتى يجيءَ أصحابه، فأتى رجلٌ من الأنصار أعرابيًا فأرخى زمام ناقته لتشرب، فأبى أن يَدَعَهُ، فانتزع حجراً ففاض[3]، فرفع الأعرابيُّ خشبةً فضربَ رأسَ الأنصاريِّ فشجَّه، فأتى عبدَ الله بن أبيٍّ ـ رأسَ المنافقين ـ فأخبره، وكان من أصحابه، فغضب، وقال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا من حوله، يعني الأعراب، ثم قال لأصحابه: إذا رجعتم إلى المدينة فليخرج الأعزُّ منها الأذلَّ، قال زيد: وأنا رِدْفُ عمِّي[4]، فسمعتُ عبدَ الله، فأخبرتُ عمِّي، فأخبرَ رسولَ الله ﷺ، فأرسل إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام فَحَلَفَ وجَحَدَ، وصدَّقه ﷺ وكذَّبني، فجاء عمِّي إليَّ فقال: ما أردتَ إلى أن مقتكَ وكذَّبك المسلمون، فَوَقَعَ عليَّ من الهمِّ ما لم يقع على أحدٍ قطّ، فبينا أنا أسير وقد خفضت رأسي[5] من الهمِّ، إذ[6] أتاني رسول الله ﷺ فَعَرَكَ أذني وضَحِكَ في وجهي، ثم إنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه لحقني فقال: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قلت: ما قال لي شيئاً إلا أنه عَرَكَ أذني وضحك في وجهي، فقال: أبشرْ، فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ حتى بلغ ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾. وقد تقدم عن البخاريِّ

---

(١) برقم (٣٣١٣)، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (٥٠٤١)، والحاكم ٢/ ٤٨٨-٤٨٩، والبيهقي في الدلائل ٤/ ٥٤-٥٥.

(٢) في الأصل و(م): حوضه. والمثبت من المصادر.

(٣) كذا في الأصل و(م) والمستدرك والدلائل، وجاء في مطبوع سنن الترمذي وعارضة الأحوذي ١٢/ ٢٠٢، وتحفة الأحوذي ٩/ ٢١٥، وجامع الأصول ٢/ ٣٩٣: فانتزع قباضَ الماء، وفي المعجم الكبير: فانتزع حجراً ففاض الماء. وكذا نقله ابن كثير عن الترمذي، ومثله في الدر المنثور ٦/ ٢٢٢.

(٤) في سنن الترمذي: وأنا ردف رسول الله ﷺ.

(٥) في المصادر: خفقت برأسي.

(٦) في (م): إذا.

ما يدلُّ على أنه قائل ذلك أيضاً[١]. وأخرج الإمام أحمد ومسلم والنسائي نحو ذلك[٢]، والأخبار فيه أكثرُ من أن تحصى.

وتلك الغَزاةُ التي أشار إليها زيدٌ، قال سفيان: يرون أنها غزاة بني المصطلق، وفي «الكشاف»[٣] خبرٌ طويلٌ في القصة يُفهَمُ منه أنهم عَنوا بمَنْ عند رسول الله فقراءَ المهاجرين.

والظاهرُ أنَّ التعبير بـ «رسول الله» ـ أي: بهذا اللفظ ـ وَقَعَ منهم، ولا يأباهُ كُفْرهم؛ لأنهم منافقون مقرُّون برسالته عليه الصلاة والسلام ظاهراً.

وجُوِّزَ أن يكونوا قالوه تهكُّماً، أو لغلبته عليه ﷺ حتى صار كالعَلَم، لم يُقصَدْ منه إلا الذات، ويحتَملُ أنهم عبَّروا بغير هذه العبارة، فغيَّرها الله عزَّ وجلَّ إجلالاً لنبيِّه عليه الصلاة والسلام وإكراماً.

والانفضاضُ: التفرُّق، و«حتى» للتعليل، أي: لا تنفقوا عليهم كي يتفرَّقوا عنه عليه الصلاة والسلام ولا يصحبوه.

وقرأ الفضل بن عيسى الرقاشي: «يُنْفِضُوا»[٤] من أَنْفَضَ القومُ: فَنِيَ طعامهم، فَنَفَضَ الرجلُ وعاءه، والفعل مما يتعدَّى بغير الهمزة وبالهمزةِ لا يتعدَّى، قال في «الكشاف»[٥]: وحقيقته: حان لهم أن يَنْفُضُوا مزاوِدَهُم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ رَدٌّ وإبطالٌ لما زعموا من أنَّ عدم إنفاقهم على من عند رسول الله ﷺ يؤدِّي إلى انفضاضهم عنه عليه الصلاة والسلام، ببيان أنَّ خزائنَ الأرزاق بيد الله تعالى خاصةً، يُعطي منها من يشاء ويمنع من يشاء ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾ ذلك لجهلهم بالله تعالى وبشؤونه عزَّ وجلَّ، ولذلك يقولون من مقالات الكفرة ما يقولون.

---

(١) ينظر ص١٦٨ من هذا الجزء.
(٢) أحمد (١٩٣٣٣)، ومسلم (٢٧٧٢)، والنسائي في الكبرى (١١٥٣٤).
(٣) ٤/ ١١٠.
(٤) الكشاف ٤/ ١١١، والمحرر ٥/ ٣١٤، والبحر ٨/ ٢٧٤.
(٥) ٤/ ١١١.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ قائله كما سمعتَ ابنُ أُبَيٍّ، وعنى بالأعزِّ نفسَهُ أو: مَنْ يلوذُ به، وبالأذلِّ مَنْ أعزَّه الله عزَّ وجلَّ، وهو الرسول ﷺ، أو: هو عليه الصلاة والسلام والمؤمنون، وإسنادُ القول المذكور إلى جميعهم لرضائهم به كما في سابقه.

وقرأ الحسن وابن أبي عبلةَ والمسيبي[1] في اختياره: «لَنُخرِجَنَّ» بالنون، ونصب «الأعزّ» و«الأذلّ»[2] على أنَّ «الأعزَّ» مفعولٌ به، و«الأذلَّ» إما حالٌ بناءً على جواز تعريف الحال، أو زيادة «أل» فيه نحو:

أرسـلـهـا الـعِـراك[3] . . . .

و: ادخُلوا الأوَّلَ فالأوَّل، وهو المشهورُ في تخريج ذلك، أو حالٌ بتقدير: مثل، وهو لا يتعرَّفُ بالإضافة، أي: مِثْلَ الأذل، أو مفعول به لحالٍ محذوفة، أي: مُشْبِهاً الأذلَّ، أو مفعول مطلق على أنَّ الأصلَ: إخراجَ الأذلِّ، فحُذف المصدر المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فانتصب انتصابَه.

وحكى الكسائيُّ والفراءُ أنَّ قوماً قرؤوا: «لَيَخرُجَنَّ» بالياء مفتوحة وضمّ الراء، ورَفْع «الأعزُّ» على الفاعلية، ونَصْبِ «الأذلَّ» على ما تقدم[4]، بيد أنك تُقدِّرُ على تقدير النصب على المصدرية: خروجَ. وقرئَ: «لَيُخْرَجَنَّ» بالياء مبنيًا للمفعول، ورفع «الأعزُّ» على النيابة عن الفاعل، ونصب «الأذلّ» على ما مرَّ[5].

وقرأ الحسن فيما ذكر أبو عمرو الداني: «لَنَخْرُجَنَّ» بنون الجماعة مفتوحةً وضمِّ

---

(١) في الأصل و(م): والسبتي، والمثبت هو الصواب، ينظر الدر المصون ١٠/ ٣٤٣.
والمسيبي هو إسحاق بن محمد المخزومي المدني، من جلة أصحاب نافع المحققين. معرفة القراء الكبار ١/ ٣١٢

(٢) القراءات الشاذة ص١٥٧، والكشاف ٤/ ١١١، والبحر ٨/ ٢٧٤.

(٣) قطعة من بيت للبيد بن ربيعة العامري، وهو في ديوانه ص٨٦ برواية:

فـأوردهـا الـعِـراكَ ولـم يَـذُدْهَـا ... ولـم يُـشـفـق عـلـى نَـغَـص الـدِّخـال

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٧، والبحر ٨/ ٢٧٤.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٧٤.

الراء، ونَصْب «الأعزَّ» و«الأذلَّ» وحكى هذه القراءةَ أبو حاتم(١)، وخُرِّجتْ على أنَّ نَصْبَ «الأعزّ» على الاختصاص كما في قولهم: نحن العربَ أقرى الناس للضيف، ونَصْبَ «الأذلّ» على أحد الأوجه المارَّة فيما حكاه الكسائي والفرَّاء، والمقصود إظهارُ التضجُّر من المؤمنين، وأنهم لا يمكنهم أن يُساكنوهم في دار. كذا قيل، وهو كما ترى، ولعلَّ هذه القراءة غيرُ ثابتةٍ عن الحسن.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ رَدٌّ لما زعموه ضِمْناً من عِزَّتهم وذلِّ مَنْ نسبوا إليه الذِّلَّ، وحاشاه منه، أي: ولله تعالى الغَلَبةُ والقوَّةُ، ولمن أعزَّهُ الله تعالى من رسوله ﷺ والمؤمنين لا للغير، ويُعلَم مما أشرنا إليه توجيه الحصر المستفاد من تقديم الخبر. وقيل: إنَّ العَطْفَ معتَبرٌ قبل نسبة الإسناد، فلا ينافي ذلك، ولا يضرُّ إعادةُ الجارِّ؛ لأنها ليست لإفادة الاستقلال في النسبة، بل لإفادة تفاوت ثبوت العزة، فإنَّ ثبوتها لله تعالى ذاتيٌّ، وللرسول ﷺ بواسطة الرسالة، وللمؤمنين بواسطة الإيمان، وجاء من عِدَّة طُرقٍ أنَّ عبد الله بن عبد الله بن أُبيٍّ - وكان مخلصاً - سلَّ سيفَهُ على أبيه عندما أشرفوا على المدينة، فقال: واللهِ عليَّ أن لا أغمده حتى تقولَ: محمدٌ الأعزُّ وأنا الأذلُّ. فلم يبرحْ حتى قال ذلك(٢).

وفي رواية أنه ﷺ وَقَفَ والناسُ يدخلون حتى جاء أبوه، فقال: وراءك، قال: ما لك ويلك؟! قال: واللهِ لا تدخلها أبداً إلا أن يأذن رسول الله ﷺ، ولتعلمنَّ اليومَ الأعزّ من الأذلّ، فرجع حتى لقي رسولَ الله ﷺ فشكا إليه ما صنع ابنه، فأرسل إليه النبيُّ ﷺ أن خَلِّ عنه يدخلْ. ففعل(٣).

وصحَّ من رواية الشيخين والترمذي وغيرهم عن جابر بن عبد الله أنه لما بلغ رسولَ الله ﷺ ما قال ابنُ أبيٍّ قام عمر ﷺ، فقال: يا رسولَ الله دعني أضرب عنقَ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣١٥) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه ابن شبَّة في تاريخ المدينة ١/ ٣٦٦ - ٣٦٧. عن محمد بن سيرين مرسلاً.

هذا المنافق؟ فقال النبيُّ ﷺ: «دَعْهُ، لا يتحدَّثُ الناسُ أنَّ محمداً يقتل أصحابه»[١].

وفي روايةٍ عن قتادة أنه قال له عليه الصلاة والسلام: يا نبيَّ الله، مُرْ معاذاً أن يضربَ عنقَ هذا المنافق، فقال ﷺ ذلك[٢].

وفي الآية من الدلالة على شَرَفِ المؤمنين ما فيها، ومن هنا قالت بعض الصالحات وكانت في هيئةٍ رَثَّة: ألستُ على الإسلام، وهو العِزُّ الذي لا ذُلَّ معه، والغنى الذي لا فَقْرَ معه[٣].

وعن الحسن بن عليٍّ على رسول الله وعليهما الصلاة والسلام أنَّ رجلاً قال له: إنَّ الناسَ يزعمون أنَّ فيك تِيهاً؟ قال: ليس بتيهٍ، ولكنه عِزَّة. وتلا هذه الآية[٤]. وأريد بالتِّيه الكِبْر، وأشارَ الخبر[٥] إلى أنَّ العِزَّةَ غيرُ الكِبْر، وقد نصَّ على ذلك أبو حفص السهروردي قُدِّسَ سِرُّه، فقال: العِزَّةُ غيرُ الكبر؛ لأنَّ العِزَّة معرفةُ الإنسان بحقيقة نفسه، وإكرامُها أن لا يضعها لأقسامٍ عاجلة، كما أنَّ الكبر جهلُ الإنسان بنفسه، وإنزالها فوق منزلتها، فالعِزَّةُ ضد الذِّلة، كما أنَّ الكبر ضدّ التواضع.

وفسَّر الراغبُ العِزَّةَ بحالةٍ مانعةٍ للإنسان من أن يُغلَبَ، مِن قولهم: أرضٌ عَزازٌ، أي: صُلْبَةٌ، وتعزَّزَ اللحمُ: اشتدَّ، كأنه حَصَلَ في عَزازٍ يصعبُ الوصولُ إليه، وقد تُستعار للحَمِيَّةِ والأنفة المذمومة[٦]. وهي بهذا المعنى تَثْبُتُ للكَفَرة، وتفسيرها بالقوة والغلبة كما سمعتَ شائعٌ، ولك أن تُريدَ بها هنا الحالةَ المانعةَ من المغلوبية، فإنها أيضاً ثابتةٌ لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين على الوجه اللائق بكلٍّ.

---

(١) البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) (٦٣)، والترمذي (٣٣١٥)، وهو عند أحمد (١٥٢٢٣).

(٢) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة ١/ ٣٦٥-٣٦٦.

(٣) ذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان ٢/ ٢٨٦ عن رابعة العدوية.

(٤) الكشاف ٤/ ١١١.

(٥) في (م): العز.

(٦) المفردات (عزّ).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ من فرط جهلهم وغرورهم، فيهذون ما يهذون، والفعلُ هنا مُنزَّلٌ منزلةَ اللازم، فلذا لم يُقدَّرْ له مفعولٌ، ولا كذلك الفعلُ فيما تقدم، وهو ما اختاره غيرُ واحدٍ من الأجلَّة، وقيل في وجهه: إنَّ كَونَ العِزَّة لله عزَّ وجلَّ مستلزِمٌ لكون الأرزاق بيده دون العكس، فناسَبَ أن يعتبر الإطلاق(١) في الجملة المذيِّلة لِمَا يفيد كونَ العزَّة له سبحانه قَصْداً للمبالغة، والتقييد للجملة المذيِّلة لِمَا يفيد كونَ الأرزاق بيده تعالى.

ثم قيل: خصَّ الجملةَ الأولى بـ «لا يفقهون» والثانية بـ «لا يعلمون»؛ لأنَّ إثباتَ الفقه للإنسان أبلغُ من إثبات العلم له، فيكون نفيُ العلم أبلغَ من نفي الفقه، فأُوثر ما هو أبلغُ لِمَا هو أَدْعَى له.

وعن الراغب: معنى قوله تعالى: (هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا) إلخ، أنهم يأمرون بالإضرار بالمؤمنين، وحبسِ النفقات عنهم، ولا يفطنون أنهم إذا فعلوا ذلك أَضرُّوا بأنفسهم، فهم لا يفقهون ذلك ولا يفطنون له، ومعنى الثاني إيعادهم بإخراج الأعزِّ للأذلِّ، وعندهم أنَّ الأعزَّ مَنْ له القوَّةُ والغلبةُ على ما كانوا عليه في الجاهلية، فهم لا يعلمون أنَّ هذه القدرةَ التي يَفضُلُ بها الإنسانُ غيرَهُ إنما هي من الله تعالى، فهي له سبحانه ولمن يخصُّهُ بها من عباده، ولا يعلمون أنَّ الذُّلَّ لمن يقدرون فيه العِزَّة، وأنَّ الله تعالى مُعِزُّ أوليائه بطاعتهم له، ومُذلُّ أعدائه بمخالفتهم أمره عزَّ وجلَّ، فقد اختصَّ كلّ آيةٍ بما اقتضاه معناها، فتدبَّر.

والإظهارُ في مقام الإضمار لزيادة الذَّمِّ مع الإشارة إلى عِلَّة الحكم في الموضعين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يشغلكم الاهتمامُ بتدبير أمورها والاعتناء بمصالحها والتمتع بها، عن الاشتغال بذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ، من الصلاة وسائر العبادات المذكِّرة للمعبود الحقِّ جلَّ شأنه، فذِكْرُ الله تعالى مجازٌ عن مطلق العبادة كما يقتضيه كلامُ الحسن وجماعة، والعلاقةُ السببيةُ؛

(١) في (م): الأخلاق.

لأنَّ العبادةَ سببٌ لذِكْره سبحانه، وهو المقصودُ في الحقيقة منها.

وفي روايةٍ عن الحسن أنَّ المرادَ به جميعُ الفرائض. وقال الضحاك وعطاء: الذِّكْرُ هنا الصلاةُ المكتوبة. وقال الكلبيُّ: الجهادُ مع الرسول ﷺ. وقيل: القرآن. والعمومُ أولى.

ويُفهِمُ كلامُ «الكشاف»[1] أنَّ المرادَ بالأموال والأولاد الدنيا، وعبَّر بهما عنها لكونهما أرغبَ الأشياء منها، قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦] فإذا أُريد بذِكْر الله العموم، يؤُولُ المعنى إلى: لا تشغلنَّكم الدنيا عن الدين، والمراد بنهي الأموال وما بعدها نهيُ المخاطبين، وإنما وُجِّهَ إليها للمبالغة؛ لأنها لقوَّة تسبُّبها لِلَّهو، وشِدَّة مدخليَّتها فيه، جُعلتْ كأنها لاهيَةٌ وقد نُهيت عن اللهو، فالأصل: لا تلهوا بأموالكم.. إلخ، فالتجوُّزُ في الإسناد.

وقيل: إنه تجوُّزٌ بالسبب عن المسبَّب، كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ [الأعراف: ٢] أي: لا تكونوا بحيث تُلهيكم أموالكم.. إلخ.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: اللهو بها، وهو الشغل، وهذا أبلغُ مما لو قيل: ومن تُلْهِهِ تلك.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ حيث باعوا العظيمَ الباقي بالحقير الفاني. وفي التعريف بالإشارة والحَصْر للخسران فيهم، وفي تكرير الإسناد وتوسيط ضمير الفصل، ما لا يخفى من المبالغة، وكأنه لمَّا نُهي المنافقون عن الإنفاقِ على مَنْ عند رسول الله ﷺ وأُريد الحثُّ على الإنفاق، جعل قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) إلخ تمهيداً وتوطئةً للأمر بالإنفاق، لكن على وجه العموم في قوله سبحانه: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ أي: بعضَ ما أعطيناكم وتفضَّلنا به عليكم من الأموال ادِّخاراً للآخرة.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: أماراته ومقدِّماته، فالكلامُ على تقدير مضاف، ولذا فُرِّعَ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ أي: أمهلتني

(١) ٤/١١١.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: أمدٍ قصيرٍ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ أي: فأتصدقَ، وبذلك قرأ أبيٌّ وعبد الله وابن جبير[1]، ونَصْبُ الفعل في جواب التمنِّي.

والجزمُ في قوله سبحانه: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠﴾ بالعَطْف على موضع «فأصَّدَّق» كأنه قيل: إن أَخَّرتني أَصَّدَّقْ وأكنْ، وإلى هذا ذهب أبو عليٍّ الفارسي والزجَّاج[2]، وحكى سيبويه عن الخليل أنه على توهُّم الشرط الذي يدلُّ عليه التمنِّي؛ لأنَّ الشرطَ غيرُ ظاهرٍ ولا يُقدَّرُ حتى يُعتبَرَ العَطْفُ على الموضع كما في قوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرْهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٦] فيمن قرأ بالجزم[3]، وهو حَسَنٌ بَيْدَ أنَّ التعبيرَ بالتوهُّم هنا ينشأ منه توهُّمٌ قبيحٌ، والفرقُ بين العطف على الموضع والعطف على التوهُّم أنَّ العاملَ في العطف على الموضع موجودٌ وأثره مفقودٌ، والعاملَ في العطف على التوهُّم مفقودٌ وأثره موجود.

واستُظْهِر أنَّ الخلافَ لفظيٌّ، فمراد أبي عليٍّ والزجَّاج العطفُ على الموضع المتوهَّم، أي: المقدَّر؛ إذ لا موضعَ هنا في التحقيق، لكنهما فرَّا من قُبْحِ التعبير.

وقرأ الحسن وابن جبير وأبو رجاء وابن أبي إسحاق ومالك بن دينار والأعمش وابن محيصن وعبد الله بن الحسن العنبري وأبو عمرو: «وأكونَ» بالنصب[4]، وهو ظاهرٌ. وقرأ عبيد بن عمير: «وأكونُ» بالرفع على الاستئناف[5]، والنحويُّون وأهلُ المعاني قدَّروا المبتدأ في أمثال ذلك من الأفعال المستأنفة، فيقال هنا: أي: وأنا أكونُ. ولا تراهم يُهملون ذلك، ووُجِّهَ بأنَّ ذلك لأنَّ الفعلَ لا يصلحُ للاستئناف مع الواو الاستئنافية كما هنا، ولا بدونها، وتُعقِّبَ بأنه لم يذهبْ إلى عدم صلاحيته لذلك أحدٌ من النحاة، وكأنه لهذا صرَّحَ العلامةُ التفتازانيُّ بأنَّ التزامَ التقدير مما لم يظهر له وجهه. وقيل: وجهُهُ أنَّ الاستئنافَ بالاسميَّة أظهرُ. وهو كما ترى.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٧، والمحرر ٥/ ٣١٥، والبحر ٨/ ٢٧٥.
(٢) الحجة للقراء السبعة ٦/ ٢٩٣، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧٨.
(٣) وهي قراءة حمزة والكسائي وأبي عمرو، ينظر التيسير ص١١٥، والنشر ٢/ ٢٧٣.
(٤) التيسير ص٢١١، والنشر ٢/ ٣٨٨ عن أبي عمرو، والكلام من البحر ٨/ ٢٧٥.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٧٥.

وجُوِّزَ كونُ الفعل على هذه القراءة مرفوعاً بالعطف على «أَصَّدَّق» على نحو القولين السابقين في الجزم.

هذا، وعن الضحاك أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ يعني الزكاة والنفقة في الحجِّ. وعليه قولُ ابن عباس فيما أخرج عنه ابن المنذر[1]: «فأصدق» أُزكِّي «وأكن من الصالحين» أَحُجُّ.

وأخرج الترمذيُّ وابن جرير والطبرانيُّ وغيرهم عنه أيضاً أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له مالٌ يُبلِّغه حَجَّ بيت رَبِّه، أو تجب عليه فيه الزكاة، فلم يفعلْ، سألَ الرجعةَ عند الموت» فقال له رجل: يا ابن عباس، اتَّقِ الله تعالى، فإنما يسألُ الرجعةَ الكفارُ؟ فقال: سأتلو عليكم بذلك قرآناً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر السورة، كذا في «الدر المنثور»[2].

وفي «أحكام القرآن» رواية الترمذيِّ عنه ذلك موقوفاً عليه[3].

وحكى عنه في «البحر»[4] وغيره أنه قال: إنَّ الآيةَ نزلتْ في مانع الزكاة، ووالله لو رأى خيراً لما سأل الرجعة، فقيل له: أما تتقي الله تعالى، يسألُ المؤمنون الكرَّةَ؟! فأجاب بنحو ما ذكر.

ولا يخفى أنَّ الاعتراضَ عليه، وكذا الجواب أوفقُ بكونه نفسه ادَّعى سؤالَ الرجعة، ولم يرفع الحديث بذلك.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٢٦.
(٢) ٦/ ٢٢٦، وينظر التعليق الذي بعده.
(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٠١، والإكليل للسيوطي (ويسميه المصنف: أحكام القرآن) ص٢٦٤. وقد أخرجه الترمذي مرفوعاً وموقوفاً (٣٣١٦)، وهو في تفسير الطبري ٢٢/ ٦٧٢ موقوفاً، وفي المعجم الكبير (١٢٦٣٥) مرفوعاً. وكلاهما من طريق أبي جناب الكلبي عن الضحاك عن ابن عباس. والضحاك لم يسمع من ابن عباس، وأبو جناب قال عنه الترمذي: ليس بالقوي في الحديث.
(٤) ٨/ ٢٧٤.

وإذا كان قوله تعالى: (لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ) إلخ، سؤالاً للرجعة بمعنى الرجوع إلى الدنيا بعد الموت، لم يحتجْ قوله تعالى: (مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ) إلى تقدير مضافٍ كما سمعتَ آنفاً.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ أي: ولن يمهلها ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ﴾ أي: آخرُ عمرها، أو انتهى الزمانُ الممتدُّ لها من أول العمر إلى آخره على تفسير الأجل به.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ فمُجازٍ عليه. وقرأ أبو بكر بالياء آخر الحروف[1]، ليوافقَ ما قبله في الغَيبة. و«نفساً» لكونها نكرة في سياق النفي في معنى الجمع.

واستدلَّ الكيا[2] بقوله تعالى: «وأنفقوا» إلخ على وجوب إخراج الزكاة على الفور ومنع تأخيرها.

ونُسِبَ للزمخشري أنه قال: ليس في الزجر عن التفريط في هذه الحقوق أعظم من ذلك، فلا أحدَ يُؤخِّر ذلك إلا ويجوز أن يأتيه الموتُ عن قريبٍ، فيلزمه التحرُّزُ الشديدُ عن هذا التفريط في كلِّ وقت[3].

وقد أبطلَ الله تعالى قولَ المجبِّرة من جهات: منها قوله تعالى: «وأنفقوا»، ومنها أنه إن كان قبلَ حضور الموت لم يَقْدِرْ على الإنفاق، فكيف يتمنَّى تأخيرَ الأَجَل؟ ومنها قوله تعالى مُؤيِّساً له في الجواب: «ولن يؤخر الله» ولولا أنه مختارٌ لأُجيب باستواء التأخير والموت حين التمنِّي، وأجيب بأنَّ أهلَ الحقِّ لا يقولون بالجبر، فالبحثُ ساقطٌ عنهم، على أنه لا دلالةَ في الأول كما في سائر الأوامر كما حُقِّقَ في موضعه، والتمنِّي ـ وهو متمسَّكُ الفريق ـ لا يصحُّ الاستدلالُ به، والقولُ المؤيِّسُ إبطالٌ لتمنِّيهم، لا جوابٌ عنه؛ إذ لا استحقاقَ لوضوح البطلان، والله تعالى أعلم.

---

(١) التيسير ص٢١١، والنشر ٢/ ٣٨٨.
(٢) في أحكام القرآن له ٢/ ٤١٧، ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في الإكليل ص٢٦٤.
(٣) ينظر الكشاف ٤/ ١١٢.